الاستشراق والمستشرقون

بين الإنصاف والتجني

أ.د. سعد بوفلاقة

المكتب العربي للمعارف

الاستشراق والمستشرقــون

بين الإنصاف والتجني

اسم الكتاب : الاستشراق والمستشرقون

اسم المؤلف : دكتور/ سعد بوفلاقة

رسوم الغلاف : شريف الغالي

الناشر

المكتب العربي للمعارف

٢٦ شارع حسين خضر من شارع عبد العزيز فهمي

ميدان هليوبوليس - مصر الجديدة - القاهرة

تليفون /فاكس: ٢٦٤٢٣١١٠ - ٠١٢٨٣٣٢٢٢٧٣

بريد إلكتروني : Malghaly@yahoo.com

الطبعة ٢٠١٦

رقـم الإيداع : ٢٠١٥/٢١١٨١

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 978-977-276-941-4

الاستشراق والمستشرقـــون
بين الإنصاف والتجني

تأليف: أ.د. سعد بوفلاقة

الناشر
المكتب العربي للمعارف

مقدمة

اهتم المفكرون العرب في القرن الماضي بالاستشراق والمستشرقين، فظهر لكثير من المفكرين والباحثين العرب دراسات متعددة ومختلفة عنهم تراوحت بين المدح والذم، رأى بعضهم أنَّ الاستشراق كان حركة شريرة لم تقدم لتاريخنا العربي، ومقدساتنا أية خدمة أو نفع، ورأى آخرون أن الاستشراق حركة كان لها من الأهداف المعادية للعروبة والإسلام، ولكنه يَظَلُّ مساهمة لا يمكن تجاهل أهميتها أو التَّغاضِ عمّا كان لها من مردود واضح الأثر في إغناء الدراسات العربية والإسلامية في مختلف حقولها، وآفاقها «واتُّهم من أنصف المستشرقين، ومن تجنَّى عليهم هو أيضا متّهم،»[١] وتظَلُّ ظاهرة الاستشراق موضع جدل وبحث، وهذا ما يدعونا إلى القول بأنَّ الاستشراق لم ينل حظه من البحث العلمي المتجرد، وأن الكثير من الدراسات في هذا الموضوع ما تزال بحاجة إلى إعادة النظر، وخاصة ونحن على أعتاب العولمة (العالمية) التي يجب التعامل معها « كظاهرة لا مفر من الإقرار بوجودها، ولكن من الضرورة الاهتمام بها ومحاولة الاستفادة من جوانبها الإيجابية، والتحفظ على جوانبها السلبية.. أي: نَستَطيع إعداد خطة علمية للاستفادة من العولمة العالمية ومواجهة العولمة الأمريكية».[٢]

---

[1] علي إبراهيم النملة: الاستشراق في الأدبيات العربية..، ص: ٩، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤١٤ هـ/١٩٩٣ م.

[2] انظر د.عبد النبي الصطيف: حوار الحضارات في عصر العولمة في كتاب محاضرات في حوار الحضارات، ص: ٣٢٣ وما بعدها، نشر المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، ط٢، ١٤٢١ هـ/٢٠٠١ م.

لكل هذه الأسباب برزت عندي فكرة الكتابة عن «الاستشراق الألماني وأثره في الثقافة العربية-آنا ماري شيمل نموذجاً-».

وسيحاول هذا البحث انطلاقا من هذه الأفكار أن يقَدّم عينات من أعمال المستشرقين (المنصفون منهم والمتعصبون) وفقًا للخطوات المنهجية الآتية:

١. مدلولات كلمة استشراق
٢. مدلولات كلمة مستشرق
٣. تاريخ الاستشراق
٤. دوافع وأهداف الاستشراق والمستشرقين
٥. مجالات الاستشراق ووسائله
٦. منهج المستشرقين في دراساتهم

تمهيد

كثرت الدراسات الاستشراقية في القرن الماضي، فظهر لكثير من المفكرين العرب والمسلمين دراسات وكتابات متعددة ومختلفة، ولكن أكثرها دراسات فردية بحتة لم يجمع الرأي فيها في مؤتمر علمي منظم لنعرف صائب الآراء وأثر الاستشراق ونفعه وضرره.[٣] وظل مفهوم الاستشراق غير واضح المعالم لديهم، فمنهم من ينظر إليه نظرة إعجاب تصل أحيانا إلى الانبهار، ومنهم من يرفض كل ما يأتي عن هذا المفهوم حتّى ولو اصطبغ بصبغة علمية، والآخر المتأمل فلم ينبهر ولم يرفض، وأخضع نتاج هذا المفهوم لأحكام علمية خالصة، وليس هناك تحديد واضح لمفهوم الاستشراق بحيث يمكن معه إطلاق هذا المصطلح على ظاهرة بعينها، وليس هناك تحديد واضح ودقيق لنشأة الاستشراق، بحيث يستطيع الباحث أو المطلع في هذا المجال أن يحدِّدَ تاريخا بعينه، ولم تكن لمفهوم الاستشراق دوافع واضحة متميزة، فجاءت الدوافع في الأدبيات العربية متداخلة بعضها مع بعض، كما أنه لم يكن هناك وضوح في تحديد الأهداف، بل هناك خلط أحيانا بين الدوافع والأهداف.[٤]

وسنحاول تحديد بعض هذه المفاهيم والمصطلحات التي نستعملها، لأنَّ كثيرا من الالتباس المؤدي إلى الاختلاف ناتج عن الخلاف في دلالات

---

[3] يوسف عز الدين: الاستشراق وبواعثه وماله وما عليه، مقال منشور في مجلة المشكاة المغربية، العدد: ٢٩، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م، ص: ١٤.

[4] علي النملة: المرجع السابق، ص: ١٣ وما بعدها. وانظر مجلة الفيصل التي تصدر في المملكة العربية السعودية، العدد: ٣٢٢ ربيع الآخر ١٤٢٤ هـ/يونيو ٢٠٠٣ م، ص: ١٣٢.

المصطلح، وأنَّ المسألة لا تنحصر في حدود فقه اللغة، بل تتجاوزها إلى أبعاد سياسية وثقافية وأيديولوجية.[٥]

---

[5] د.أحمد طالب الإبراهيمي: حوار الحضارات، مقال منشور في كتاب العربي «الإسلام والغرب»، ص: ١١٥، يوليو ٢٠٠٢ م.

مدلولات كلمة استشراق

الاستشراق هو: «مصطلح أو مفهوم عام يطلق عادة على اتجاه فكري يُعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة الإسـلام والعرب بصفة خاصة».[٦]

ويذهبُ عمر فروخ إلى أنَّ الاستشراق هو اهتمام علمـاء الغـرب بعلـوم المسلمين وتـاريخهم ولغـاتهم وآدابهـم وعلـومهم وعـاداتهم ومعتقـداتهم وأساطيرهم.[٧]

كما حاول تعريفه: إدوارد سعيد،[٨] ومالك بن نبي،[٩] وأحمد الزيـات،[١٠] ومحمد حسين الصغير،[١١] ومحمد عبد الغني حسن،[١٢] ومحمود زقـزوق،[١٣] وسواهم.

---

[6] عدنان محمد وزان: الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر (سلسلة دعوة الحق (٢٤)، مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م، ص: ١٥.

[7] انظر: عمر فَرّوخ: «الاستشراق في نطاق العلم وفي نطاق السياسة» في كتاب: الإسلام والمستشرقون، تأليف نخبة من العلماء المسلمين، جدة، دار المعرفة، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م. وانظر أيضا: عبد الرحمن حسن جبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، ص: ٥. اقتبسه: محمد البشير مغلي في كتابه: مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، ص: ٤١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠٢ م.

[8] إدوارد سعيد: الاستشراق (تعريب كمال أبي ديب)، ص: ١٠١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٤ م.

[9] مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص: ٥٠، دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

[10] أحمد سما يلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص: ٢١-٣٨، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ م.

[11] محمد حسين الصغير: المستشرقون والدراسات القرآنية، ص: ١١-١٣، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.

أمَّا المدلول اللغوي: فيقرب من هذا التّعريف أيضا، فكلمة «الاستشــراق» مشتقة من الشرق، وبالتدقيق الشرق العربي الإســلامي، ويعرّفــه القــاموس الفرنسي «بأنه مجموعة المعارف التي تتعلــق بالشــعوب الشــرقية ولغــاتهم وتاريخهم وحضارتهم، وفي المجاز يعني عندهم تذوّق أشياء الشرق».(١٤)

---

(12) محمد عبد الغني حسن: عبد الله فكري (سلسلة أعلام العرب)، ص: ٨٩، الدار المصرية للطباعة، القاهرة (د-ت).

(13) محمد حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص: ١٧-١٨، الدوحة، قطر، ١٤٠٤هـ.

(14) (Loc, Cit) نقلا عن محمد البشير مغلي: مناهج البحث في الإسلاميات.. ص: ٣٩. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠٢ م.

مدلولات كلمة مستشرق

أ..إن معنى كلمة «مستشرق» صار شرقيا، وقد أُطْلِقت هذه اللفظة على كل عالم غربي يهوى إتقان لغة شرقية وتجرد إلى دراسة بعض اللغـــات الشـــرقية كالفارسية والتركية والهندية والعربية. وتقصّى آدابها طلبا لمعرفة شأن أمة أو أمم شرقية من حيث أخلاقُها وعاداتُها وتاريخها ودياناتها أو علومها...(١٥)

ب..المستشرق شخص يتعاطى دراسة اللغات والحضـــارات الشـــرقية، أي: رسام متخصّص في تصوير مناظر ونماذج اسغرابية.(١٦)

ج..الباحث في فرع من فروع المعرفة التي تتعلق من قريب أو من بعيـــد بهذا الشرق، يسمَّى مستشرقًا.(١٧)

د..ويشتَرِطُ بعضهُم في المستشرق أن ينتمي إلى الغرب: «ولو كـــان هـــذا العالم يابانيا أو أندونسيا أو هنديا لما استحق أن يوصف بالمستشرق لأنه شرقي بحكم مولده وبيئته وحضارته».(١٨)

هـــ..وإذا كانت كلمة المستشرق تحمل دلالة أكاديمية مـــن وجهـــة نظـــر «الغرب» كما أشارت إليه بعض التعريفات السابقة فهي أيضا لا تخلـــو مـــن

---

(15) عبد الوهاب حمودة: من زلات المستشرقين، ص: ٢٧، اقتبسه محمد البشير مغلي: المرجع نفسه، ص: ٢٦.

(16) D.E. Larousse, p 646 نقلا عن محمد البشير مغلي: المرجع نفسه، ص: ٣٦. وقد استعنا به في معظم هذه التعريفات.

(17) السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص: ١٠٧. نقلا عن محمد البشير مغلي، المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(18) علي الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص: ٦٩. نقلاً عن محمد البشير مغلي: المرجع نفسه، ص: ٣٧.

تعميم على كل مَن يُعْنَى بدراسة حضارة العرب والمسلمين من «الشـــرقيين» الذين يصبح اللفظ «مستشرقًا» لديهم محل الشك والارتياب، ويصـــير مثيـــرًا لأحاسيس مختلفة لها ما يسوّغها، كعدم اقتصاره على الشواغل العلمية المجردة، وانصرافه إلى قضايا ليس أقلها الاحتواء والأبعاد السياسية.[١٩] لأن المستشرق أو الاستشراق بشكل عام، كما يعرّفه بعضهم، هو موقف عقلي كامن في طبيعة الغرب من حيث السيادة والتحكم، وهو أسلوب منهجي لإشـــباع النفـــوس بمـــا يفترضون مسبقا، بالتصور، أنَّ الشرق لكي يُصبح هذا الشرق شرقيا بـــالمعنى الذي يريدونه هم، فيستسلم لمطالبهم، وليس شرقا بالمعنى الحقيقي الصحيح، كما هو واقعه... إنه تصّور يضمون فيه كلّ ما لديهم من مخلفـــات لا تمـــتُّ إلـــى الغرب بصلة، كما لو كان صندوقًا للقمامة، فكلُّ ما ليس (نحن)، أي: غربـــي، فهو (هو)، أي: شرقي وتحت (نحن) تندرج كل الفضائل، وتحت (هو) تنـــدرج كل الرذائل.[٢٠]

تاريخ الاستشراق:

اختلفت الآراء حول بداية الاستشراق، فليس هناك تحديد واضـــح ودقيـــق لنشأة الاستشراق، بحيث يستطيع الباحث في هذا المجال أن يحدّدَ تاريخا بَعينِه، تكون فيه المنطلقات الأولى لاهتمام الاستشراق بعلوم الأمم الأخرى وثقافاتهـــا وعقائدها وآدابها وعاداتها وتقاليدها التي كانت تغطي «الشرق». وقد تعـــدّدت الآراء حول البدايات الأولى للاستشراق إلى أحد عشر رأيا، بعضـــها يعطـــي

---

[19] محمد البشير مغلي: المرجع السابق، ص: ٣٧..

[20] د.عبد الحليم عويس: مواجهة التحدي الاستشراقي من آفاق الدعوة الإسلامية في القرن الخامس عشر الهجري أعمال الملتقى الرابع عشر للفكر الإسلامي، الجزائر، شوال ١٤٠٠ هـــ/أغسطس، سبتمبر ١٩٨٠ م. منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ص: ٢٣١

تاريخا بعينه، وبعضها الآخر يعطي حقبة أو عصرا من العصور التي مَرّ بها الشرق أو العالم، والبعض الثالث لا يعطي زمنا، وإنّما يعتمد على حوادث أو غايات أراد الاستشراق الوصول إليها، فجُعلت هي البدايات.(٢١)

فبينما يعزو بعضهم نشأة الاستشراق إلى صدر الإسلام بسبب احتكاك المسلمين بالرومان في غزوة مؤتة وغزوة تبوك، ومن يومها وقف المسلمون والنّصارى موقف خصومة سياسية.

ويذهب فريق إلى أنّ الباعث على نشوئه هو الحروب الصليبية التي كانت نتيجة الاشتباك السياسي والديني بين الإسلام والنصرانية الغربية في فلسطين.

وهناك من يرى أنّ فكرة الاستشراق يمكن أن تكون قد بدأت مع الحروب الدموية التي نشبت بين المسلمين والنّصارى في الأنْدلس، وبالأخص على إثر سقوط طليطلة عام ٤٣٣ هـ/١٠٨٥م. والاستيلاء عليها من قبل النصارى.(٢٢)

ورأى آخر ينظر إلى نشأة الاستشراق وارتباطها المباشر والجدي بفترة ما يسمونه بالإصلاح الديني في القرن السادس عشر الميلادي، وهو عصر بداية الهجوم على العالم العربي والإسلامي، فكان أوّل عالم غربي برز في العمل الاستشراقي هو المستشرق وليم باستيل (١٥١٠ هـ/١٥٣١ م) الذي كان مخلصا للكنيسة كل الإخلاص.(٢٣)

---

(21) علي النحلة: المرجع السابق، ص: ١٣-١٤. وانظر ص: ٢٣ وما بعدها.

(22) السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص: ١٩-٢١. نقلا عن محمد مغلي: المرجع السابق، ص: ٤٥.

(23) علي النملة: المرجع السابق، ص: ٢٣٢. والحقيقة أن هناك من برز في العمل الاستشراقي قبل باستيل، فقد نشأ الاستشراق على أيدي الرهبان الذين تثقفوا في الأندلس من أمثال «جربرت JERBERT»، الذي اعتلى منصب البابوية باسم سلفستر الثاني (٩٩٩ – ١٠٠٣) م، و«بطرس المحترم PIERRE LEVENE» (١٠٩٢-١١٥٦) م، و«جيرار دي كريمون GERARDDE CREMONE» (١١١٤-١١٨١) م، وغيرهم...

أمَّا الذين يحاولون تحديد نشأة الاستشراق تحديدًا علميا قائما على حدث علمي، فيعودون بنشأة الاستشراق إلى سنة (٧١٢ هـ/١٣١٢ م) حينما عقد مؤتمر «فيينا» الكنسي ونادى بإنشاء كراسي في اللغات: العربية، والعبرية، واليونانية، والسريالية في الجامعات الأربع الرّئيسة في أوروبا، وهي: باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وسلامنكا، ثم في جامعة خامسة في البلاط البابوي، وقد رأى هذا الرأي كثير من الذين كتبوا عن نشأة الاستشراق، أمثال: إدوارد سعيد،[٢٤] ونذير حمدان،[٢٥] وزقزوق،[٢٦] وعدنان وزان،[٢٧] ونجيب العقيقي،[٢٨] وغيرهم...

ويبدو أنَّ هذا الرأي هو الأقرب إلى الصواب لأنه يعطي تاريخا بعَيْنِه، وحَادثة، علمية محددة بالزمان والمكان والنتائج، ولذا مال إليه كثير من الدارسين وأخذوا به، على اعتبار أنّه أكثر «أكاديمية» من الآراء التي سبقته.[٢٩]

---

[24] إدوارد سعيد: الاستشراق، ص: ١٩.

[25] نذير حمدان: الرسول صلى الله عليه وسلم، في كتابات المستشرقين، ص: ٣٤، دار المنارة، جدة، ١٤٠٦ هـ.

[26] محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص: ١٩.

[27] عدنان محمد وزان: الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر، ص: ٢٨ – ٢٩، دار المنار، جدة، ١٤٠٦ هـ.

[28] نجيب العقيقي: المستشرقون، ج١، ص: ١٢٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ م.

[29] علي النملة: المرجع السابق، ص: ٢٩.

دوافع وأهداف الاستشراق والمستشرقين

إنَّ دراسة قضية الدوافع والأهداف المبتغاة، من وراء أبحاث المستشرقين لا تتم كاملة بمعزل عن التبصر بالبنية الفكرية والتركيبة النفسية، التاريخية التي صممّتْ عن وعي أو دون وعي، فلسفة هذه الأهداف واتجاه هذه المرامي لدى هذا الغرب الذي يطلق عليه الآن أوروبا، المنصبة اهتماماتها على الشرق الإسلامي بالذات في تحليلها الاستشراقي[٣٠].

إنَّ للاستشراق دوافع وأسبابا وأهدافا يأتي في مقدمتها الدافع الديني بألوانه المتعددة، ثم تأتي في الدرجة الثانية الدوافع السياسية والاستعمارية والاقتصادية والتجارية، ولعل الدوافع والأهداف السامية الوحيدة هي الأسباب العلمية النزيهة التي لم يخل الاستشراق منها بأيّ حال، بل إنَّ هذا الدافع يزداد مع ضمور الدوافع الأخرى. ثم تأتي في المرتبة الثالثة البواعث النفسية والشخصية والخاصة والتاريخية والإيديولوجية غير الدينية كالمستشرقين الشيوعيّين الذين تدفعهم أيديولوجيتهم إلى الاتجاه إلى الاستشراق[٣١].

مجالات الاستشراق ووسائله:

اتسعت مجالات الاستشراق، وأخذت تشهد انعقاد المؤتمرات الدولية، وقد احتضنت فرنسا أولها عام ١٨٧٣ م. وصارت بذلك باريس عاصمة الاستشراق، وأخضع الاستشراق للإمبريالية والعرقية والماركسية وغيرها، غير أنه أصبح يملك منطلقات للبحث، وجمعيات علمية ومؤسسات خاصة، نمّت عدد كراسي الأستاذية في الدراسات الشرقية عبر عدد من دول الغرب، ممَّا أتاح مجالاً واسعًا لنشر الدراسات الأكاديمية[٣٢]. وهذا الميدان من أبرز الميادين التي

يعتمد عليها المستشرقون في الوصول إلى أغراضهم، لأنه الميدان الذي يستطيعون منه توجيه الباحثين وإخضاعهم للمنهج الاستشراقي، سواء أكانوا غربيين أم شرقيين من طالبي الشهادات العليا من العرب والمسلمين... وفي هذا المجال استطاع المستشرقون بدءا من القرن التاسع عشر، وضع الفكر العربي الإسلامي تحت المجهر لقولبته من جديد، وتكييفه وفقًا للأهداف الاستشراقية المسبقة. وإلى جانب هذا الميدان الأساس، امتدَّ نشاط المستشرقين إلى مجال المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية سواء في داخل أوروبا أم في داخل الوطن العربي والإسلامي نفسه. ومن الميادين التي اعتمدوا عليها كذلك تأليف الكتب، وإصدار الموسوعات العلمية كما اعتمدوا على إصدار المجلات العلمية اعتمادا كبيرًا، ومن أبرز المجلات التي أصدروها، «المجلة الآسيوية»، ومجلة «الدراسات الشرقية»، ومجلة «شؤون الشرق الأوسط»، ومجلة «العالم الإسلامي»، الأمريكية والمجلة الفرنسية المسماة بالاسم نفسه(٣٣) وسواها.

وأمَّا الموضوعات التي تناولتها هذه الدراسات فإنها قد بدأت بدراسة اللغة العربية والإسلام، ثم توسعت إلى دراسة جميع ديانات الشرق وعاداته وجغرافيته وتقاليده وأشهر لغاته ولكن أهم ما اعتنوا به هو الدراسات الخاصة بالإسلام والآداب العربية والحضارة العربية والإسلامية(٣٤).

منهج المستشرقين في دراساتهم:

أمَّا المنهج العام الذي يسير عليه أغلب المستشرقين في دراساتهم، فيتضمن عادة:

١- فصلاً مختصرًا عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢- فصلاً مختصرًا عن العقيدة.

٣- فصلاً عن الشريعة.

٤- فصلاً عن الخلافة.

٥- فصلاً عن الفرق الإسلامية.

٦- فصلاً مختصرا عن الحياة العقلية.

وهذه الخطة موجودة في كثير من الكتب المؤلفة باللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية، كما تنطق بذلك المجلة الأسيوية ودائرة المعارف الإسلامية، وغير هذين من الكتب المفردة[٣٥].

ولكن معظم المستشرقين حرّفوا كثيرا من النصوص وخانوا المنهج العلمي الأكاديمي، وسنعرض بعض هذه التحريفات والتزييفات في فرصة أخرى [٣٦].

الاستشراق والمستشرقون

بعد هذا العرض السريع الموجز يمكن أن نقول إنَّ المستشرقين ينقسمون إلى قسمين: المنصفون، والمتعصبون.

عيّنات من آثارهم وأعمالهم

أولا: المنصفون[1]: وهم ينقسمون أيضا إلى قسمين :

القسم الأول: جماعة اشتهروا بالإنصاف في الأوساط العلمية، واظهروا أنهم أقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الإطلاع على حضارات الأمم وأديانهم وثقافتهم ولغاتهم وأنهم متحرّرون تمام في بحوثهم العلمية من أثر العواطف الدينية، فكتبوا عن العروبة والإسلام وأظهروهما في ثوب نظيف على جسدٍ وسخ، فهم من منافقي المستشرقين وهم كُثُّر.

وأمَّا القسم الثاني: فجماعة لهم أهداف علمية خالصة لا يُقصَد منها إلا البحث العلمي والتمحيص ودراسة التراث العربي والإسلامي دراسة تجلوهم بعض الحقائق الخافية عنهم، وهذا الصنف قليل عدده جدًّا، وهم مع إخلاصهم في البحث والدراسة لا يسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق، إمَّا لجهلهم لأساليب اللغة العربية، وإمَّا لجهلهم بالأجواء التّاريخية على حقيقتها... وهؤلاء سرعان ما يرجعون إلى الحق حين يتبين لهم، ولكنهم كثيرًا ما يتهمهم

---

(١) الإنصاف والنصفة هو الوقوف في نصف الطريق، أي : بين التحامل والثناء، بين القدح والمدح، بمعنى التزام الحد الوسط بين الإفراط والتفريط. (انظر : محمد مغلي : المرجع السابق، ص : ٣٨٧).

(٢) د.محمد علي مكي : موقف المستشرقين من السنة، محاضرات الملتقى السادس للتعرق على الفكر الإسلامي، المنعقد بالجزائر في سنة ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م، ص : ١٩.

غيرهم من المستشرقين بالانحراف العلمي أو الانسياق وراء العاطفة أو الرغبة في مجاملة العرب والمسلمين والتقرب إليهم[٢]، كما فعلوا مع السيدة (ماري شيمل) عندما رُشّحت لاستلام جائزة الصلح للنّاشرين الألمان عام ١٩٩٥ م بدأت بعض الدوائر الصهيونية المناوئة للعروبة والإسلام في ألمانيا بانتقاد موقفها من سلمان رُشدي[١] الكاتب الذي أهان الإسلام والرسول الأكْرَم صلى الله عليه وسلم، في كتابه آيات شيطانية، لقد صرحت شيمل حينها : « بنظري أنَّ الكاتب الذي يتجاسرُ على النبي، وسلمان رشدي يعرف جيدًا ما هو الشأن المقدس للنبي عند المسلمين، فإنّه قطعا قد أهان وتجاسر على مقدسات الإسلام... وإنّني سأنتقد هذا الموقف حتى الموت»[٢]. وكذلك حدث الشيء نفسه مع (تومَاس أرنولد)، حين أنصف المسلمين في كتابه المشهور « الدعوة إلى الإسلام »، فقد برهن على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدين على عكس مخالفيهم معهم. هذا الكتاب يُعَدُّ من أدق وأوثق المراجع الحديثة في تاريخ التسامح الديني في الإسلام، يطعن فيه المستشرقون المتعصبون والمشهورون بالإنصاف (المنافقون) وخاصة الجواسيس بأنَّ مؤلفه كان مندفعا بعاطفة قوية من الحب والعطف على المسلمين مع أنَّه لم يذكر فيه حادثة إلا أرجعها إلى مصدرها[٣].

---

(١) السيدة شيمل اتخذت موقفا مخالفا لسلمان رشدي بسبب كتابه آيات شيطانية، وكذلك أعلنت أنها ليست مع الفتوى الصادرة بإهدار دم سلمان رشدي (انظر صادق العبادي مجلة الفيصل، العدد ٣٢٢، ١٤٢٤ هـ، ص : ١١٩).

(٢) صادق العبادي : المرجع نفسه، ص : ١١٩.

(٣) صادق العبادي : المرجع السابق، ص : ١١٦.

بعض المنصفين من المستشرقين الألمان

لا شك بأنَّ الاستشراق قام على خدمة الغرب للتعرف على الحياة الشرقية وحياة المسلمين، كما أسلفنا، ومع كلّ هذه الدوافع الاستعمارية، فقد تحرر بعض هؤلاء من ربقة السياسة، وكتبوا عن العروبة والإسلام ما أملته عليهم وقائع التقدم.

ومن الذين انصفوا العرب والإسلام بعض المستشرقين الألمان:

معطيات: الاستشراق الألماني وأثره في الثقافة العربية

أ. نشأة الاستشراق الألماني وأعلامه

اختلف الباحثون في بداية الاستشراق الألماني، فليس هناك تحديد واضح ودقيق لنشأة الاستشراق الألماني، بحيث يستطيع الباحث أن يحدد سنة معينة أو تاريخا بعينه.

فإذا غُصنا في عمق التاريخ للبحث عن جذور الاستشراق الألماني، جعلنا القرن الثالث عشر ميلادي بداية لتاريخ الاستشراق الألماني، وذلك حينما نتجه بأذهاننا إلى أحد كبار رجالات أوربا: الامبراطور فريدريك الثاني " Frédéric 2 "(١١٩٤-١٢٥٠م) ملك صقلية ثم إمبراطور جرماني (ألماني) (١٢٢٠-١٢٥٠م) كان واسع الثقافة، مُلماً بالعربية شاكا في الدين المسيحي، متجها إلى الإسلام، ولعله أسلم، ولكنه كان يُخفي إسلامه، كونه إمبراطوراً لدولة مسيحية، وكان شغوفا بالقراءة، والمطالعة للكتب العربية والإسلامية وقد شجع الآداب والفنون والعلوم، وألف كتابا (في فن الصيد بالباز)، وهو بحث في علم الطيور،

وكان مُعاصرا ومُعجبا بعالم النبات المسلم ابن البيطار (١٢٤٨م)، و« بعد أن مسته نفحات الفكر العربي المنعشة، اجتذب إليه فطاحل العلماء من العرب المسلمين ضاربا بذلك عرض الحائط كل ما صدر عن الكنيسة الرومانية المسيحية من تحريمات وتهجمات. ولم يكن أبدا ليخيفه الركون إلى الفكر الإسلامي. وهكذا رأينا أن الجرماني والعربي يتصفان كلاهما بهذه الصفة التي افتقدها كبار علماء الغرب، ألا وهي النظرة الواضحة النافذة إلى (الطبيعة الحقيقية) للأشياء...فهما وحدهما من وعيا الأمور الطبيعية كما يقول "فريد ريك " ذاته، وهما وحدهما من عرفا – دون ما أي حكم مسبق كيف يلاحظان وكيف يفحصان، وكيف يستكشفان الواقع المحسوس »[٣٧].

وهناك من جعل سنة ١٦٣٣ م بداية لتاريخ الاستشراق الألماني، وذلك حينما أرسل الدوق "فرديش" الثالث دوق "شليزفيج هولشتين" و"جوتروب" في أثناء حرب الثلاثين مجموعة من أربعة وثلاثين رجلا إلى فارس وروسيا للتحالف معهم ضد الأتراك، دامت خمس سنوات، وحتى وإن لم يتحقق المرجو إلا أنها أقامت جسرا ثقافيا عبرت إليه أوربا والألمان بخاصة إلى الحضارة الشرقية، وقد أنتجت هذه الرحلة كتاب " ادم اوليري" وصف الرحلة الشرقية، كما قام بترجمة " كلستان سعدي" الذي أثر كثيرا في الأدب الألماني "(٣٨).

ويبدو أن الاستشراق الالماني لم يبدأ بدايته الحقيقية إلا في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، ويعد رايسكيه reiske (١٧١٦-١٧٧٤) من أوائل المستشرقين الألمان اللذين وقفوا حياتهم على تعلم اللغة العربية ودراسة الحضارة الإسلامية، فقد كتب بحثا عاما في التاريخ الإسلامي، وتشر ترجمة لاتينية لجزء من تاريخ أبي الفداء، ونشر مقتضبات من مجمع الأمثال للميداني، وجزءاً من ديوان المتنبي، وحقق معلقة طرفة بن العبد بشرح ابن النحاس، متنا وترجمة لاتينية بتفسير وحواش، مع مقارنتها بديوان الهذليين، وحماستي

البحتري وأبي تمام وشعر المتنبي وأبي العلاء(٣٩). « وقد تعرض لاضطهاد فكري وعلمي من المتعصبين اللذين ليست لدراستهم قيمة علمية.

ومن أوائل المستشرقين الألمان أيضا "جورج" فرايتاغ freytag (١٧٨٨-١٨٦١) الذي اختير أستاذاً للغات الشرقية في جامعة بون بعد تأسيسها مباشرة سنة (١٨١٨م)، وكان قد قدم معجمه المشهور (عربي -لاتيني)، وقام بنشر ديوان الحماسة لأبي تمام، بشرح التبريزي، وترجمه إلى اللاتينية، وأصدر كتاباً في علم العروض، كما قدم مرثية تأبط شرا متنا وترجمة، والبردة لكعب بن زهير، وترجمة معلقة طرفة وغيرها (٤٠).

ونذكر من المستشرقين الألمان الأوائل كذلك "غوستاف فليغل" (١٨٠٢-١٨٧٠م)، الذي ألف المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم:

ومن أبرز المستشرقين الألمان في القرن التاسع عشر "هانري فلايشر " (١٨٠١-١٨٨٨ م) الذي يعد عميداً للمستشرقين الألمان وذلك بأعماله العلمية المتميزة في التحقيق فقد حقق طائفة من أمهات الكتب العربية نذكر منها نفح الطيب للمقري، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، والفهرست لابن النديم، والكامل للمبرد، والكامل في التاريخ للابن الأثير، وغيرها(٤١).

ونذكر من بين المستشرقين الألمان المنصفين أيضا: كارل بروكلمان (١٨٦٥/١٩٥٦ م) المستشرق الألماني، وهو عالم بتاريخ الأدب العربي، وصنّف بالألمانية كتابه المشهور تاريخ الأدب العربي، وقد تُرجم إلى اللغة العربية، وهو كتاب قيّم عدَّفيه أسماء الأدباء العرب من كتاب وشعراء وعلماء وفلاسفة، وغيرهم، على نمط كتب الطبقات والتراجم، وهو يذكر أسماء المصنفات والمؤلفات العربية في مختلف فروع العلوم والمعارف والآداب على أسلوب فهرست ابن النديم وكشف الطنون لحاجي خليفة وغيرهما من معاجم

الكتب وفهارس المكتبات، ولبروكلمان كتب أخرى، منهـا: تـاريخ الشـعوب الإسلامية، وكتاب في نحو اللغة العربية بالألمانية ومعجـم للغـة السـريالية، وغيرها. وقد ألقى بروكلمان نظرة الفاحص الخبير على الأدب العربـي فـي مختلف أزمنته وأمكنتة. ويعد كتابه تاريخ الأدب العربي من أهم الكتـب التـي تساعد الطلاب الباحثين على معرفة أماكن المصـادر والمراجـع التـي تهـم أبحاثهم. ولكن بروكلمان قد أخطأ كثيرًا في كتابه هذا، وقد ذكر بعـض هـذه الأخطاء مولود قاسم وزير التعليم الاصلي والشؤون الدنية الجزائري الأسـبق في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م (٤٢).

ومن أشهر المستشرقين الألمان المعاصرين المستشرقة (زيغريد هونكـه) صاحبة كتاب: شمس العرب تسطع على الغرب أو أثر الحضارة العربية فـي أوروبة، وهو كتاب علمي أكاديمي ألفته الدكتورة زيغريد خلال عدة سـنوات، تحدثت فيه عن الحضارة العربية والإسلامية وأثرها في تطوير حضارة الغرب في العلوم والفنون والآداب، وقد كان لظهور كتابها هذا «حدث كبير في ألمانية وأوروبة، علقت عليه مئات الصحف والمجلات، بدليل أنَّ نقاد أوروبة لم يهتموا بشيء في ذلك العام، اهتمامهم بهذا الكتاب، فهاجم عشـرات مـنهم المؤلفـة والكتاب معا، واتهموها بالتعصب للعرب والتحيز لهم. بيد أنَّ أصدقاء العـرب في كل مكان انبروا يفندون مزاعم هؤلاء ويردّون على افترائهم، فشهد الكتاب في عامه الأول معركة حامية الوطيس لم يعرفها كتاب غيره في ألمانيـة فـي السنوات الأخيرة وبهذا لاقى الكتاب، وسط هذه الضجة، نجاحًا منقطع النظير، فأعيد طبعه، وترجم إلى عددٍ من اللغات الأجنبية، كما رحبت بـه الصـحافة العربية ترحيبا بالغًا»[٤٣]. وللدكتورة زيغريد هونكِـه مؤلفـات أخـرى عـن الحضارة العربية منها:

١. الرجل والمرأة، وهو كتاب تاريخي، أكدت فيه الكاتبة كما فعلت في كتبها كلها التي تتالت، فضل العرب على الحضارة الغربية خاصة، والحضارة الإنسانية عامة(٤٤).
٢. أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية(٤٥).

وقد سئلت الدكتورة زيغريد هونكه في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م عن هدفها الأساس من تأليف كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) فأجابت:

لقد كتبتُ هذا الكتاب لأظهر للألمان والغربيين أن العرب قد قدّموا مساهمة هامة للحضارة والثقافة الغربية، وأردت فيه أيضا أن أعيد الحق إلى نصابه لأن الرأي العام عندنا يعتبر مساهمة اليونان والرومان كأساس لحضارته، وأردت كذلك أن أُبرز بأن العرب لم يكونوا فقط حاملي الحضارات القديمة مثلما تعلّمنا ذلك، ولم يكونوا همجيين، وإنما كانوا ذوي حضارة، كما أنّهم أنجزوا أشياء كثيرة، وقاموا باختراعات وقدّموا مساعدات إلى العالم الأوروبي، ولقد أعجبت أيما إعجاب عندما لاحظتُ الإقبال الكبير في البلدان العربية على كتبي واعتبار هذه البلدان بأنَّ مؤلفاتي قد ألقت أضواء جديدة على الحضارة العربية الإسلامية، ولقد عبّر لي الكثير عن ذلك ووصفوا كتبي كمحاولة تدفع العرب إلى استرجاع شخصيتهم وتبرز ماضيهم المجيد(٤٦).

ب. غلبة الروح العلمية والموضوعية على المستشرقين الألمان:

لقد كانت الجهود التي بذلها الاستشراق الألماني تكاد تكون أبرز الجهود على الإطلاق، وقد تميز معظم المستشرقين الألمان بالجدية في البحث، وكتبوا عن العروبة والإسلام ما أملته عليهم وقائع التقدم، ولم يخضعوا لغايات

سياسية ودينية، واستعمارية، بسبب عدم تورط ألمانيا بالاستعمار، وعدم اهتمامها بنشر الدين المسيحي في الشرق.

وقد تميز الاستشراق الألماني "بالدراسات الشرقية القديمة، والاهتمام بالآثار والآداب وهذا النوع من الدراسات عادة يكون خالياً من الأغراض السياسية، وكذلك غلب على الاستشراق الألماني الروح العلمية، والموضوعية، والتجرد، والإنصاف، ومبعث ذلك خصال الألمان المجبولة على الدقة والصبر والمنهج العلمي الصارم "(٤٧).

ج. موازنة بين الاستشراق الألماني والاستشراق الفرنسي:

هناك فرق بين الاستشراق الألماني السالف الذكر، المتميز بالروح العلمية والموضوعية والنزاهة والتجرد، والإنصاف والاستشراق الفرنسي الذي كان له ماض استعماري بحق باستثناء بعض الشخصيات مثل "مكسيم رودينسون "وهو مستشرق فرنسي من أصل يهودي الذي عشق الثقافة العربية الإسلامية، فأتقن اللغة العربية، وتعمق في دراسة الحضارة العربية الإسلامية، وأصدر أكثر من ستة كتب تتعلق بتاريخ العرب المسلمين وحضارتهم، وكان عالما معتدلا بعيدا عن التعصب العرقي والديني.

والمستشرق «دينية» الذي عاش في الجزائر، فأعجب بالإسلام والمسلمين، وأعلن إسلامه، باسم "ناصر الدين دينيه"وألف مع عالم جزائري كتابا عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وله كتاب "أشعة خاصة بنور الإسلام " بين فيه تحامل قومه على الإسلام ورسوله، وقد توفي هذا المستشرق المسلم في فرنسا، ونقل جثمانه إلى الجزائر ودفن فيها " (٤٨).

أما غالبية المستشرقين الفرنسيين فمتعصبون وأكثرهم جواسيس اشتغلوا بالاستشراق وهؤلاء ليست لدراستهم قيمة علمية، فالاستشراق الفرنسي دور

لا يرتاب فيه في تمهيد الأرض العربيــة والإســلامية للاســتعمار الفرنســي، فالمستشرق الفرنسي ماسينيون (Massignon) المستشرق الفرنسي المعروف كان من كبار المتعصبين، وكان جاسوسا في الشرق، وينبغي أن نعرف ذلــك جيدا، لقد بذل ماسينيون وكثير من أمثاله جهودا كبيرة لتخريب العقل العربــي والإسلامي، وتنويمه عن طريق تمجيد التصوف الكاذب، وإشــاعة الخرافــات والأباطيل وإبراز دور الحلاج والرقاصين والدراويش على نحو ما نــراه فــي مؤلفاته (٤٩). لقد خصص ماسينيون حياته للكتابة عن الحلاج، فجعله صــورة مشوهة، ويبدو «أنَّ (ماسينيون)، ما كان يُعنَى بالحلاَّج قدر عنايته بتنفيذ مخطط استعماري أحكم صنعه، فقد ملأ كتابه الضخم عن الحلاج بحشــد هائــل مــن الخرافات والترهات والأباطيل، حتى يعمق الهوة بين طائفتين توجدان بالجزائر: طائفة تتمسك بالقديم، فتنساق حسب ظنــه إلــى اعتقــاد أن هــذه الخرافــات والهذيانات هي صميم الإسلام، وطائفة مثقفة بالثقافة الحديثة تتجه في اعتقاده، من جانبها إلى السخرية والزراية بهذا الإسلام الخرافــي بــل مــن الإســلام كله»(٥٠). ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أنَّ (لويس ماســينيون هــذا) «كــان مستشاراً في وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون الشمال الإفريقي والراعي الروحي للجمعيات التبشرية الفرنسية في مصر، وخدم بالجيش الفرنسي خمس سنوات في الحرب العالمية الأولى» (٥١). وقد استطاع هذا المستشرق وأمثاله أن يعيثوا في عقول الناس فسادا وإفسادا، وأن يؤثروا في بعض ضعاف العقول من (الطرقيين) في الجزائر الذين أصبحوا يرددون خرافات هؤلاء المستشرقين، ويقولون: «اعتقد ولا تنتقد»، أي: لا تنتقد فرنسا، وأنّ الله هو الذي جاء بها إلى الجزائر، وهو الذي سيخرجها متى شاء... ولكن عبد الحميد بن باديس رئــيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والــزعيم الروحــي لحــرب التحريــر الجزائرية، حاربهم بفكره النير من خلال جريدة «المنتقــد»، التــي أصــدرها

خصيصا للرد على هؤلاء الطرقيين والمتصوفيين الذين ساروا في هذا الاتجاه الاستعماري الخبيث.

ومثله المستشرق الفرنسي أيضا دي ساسي، الذي كان يشغل منصب المستشرق المقيم بوزارة الخارجية الفرنسية منذ عام ١٨٠٥ م. وعندما غزا الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ م، كان «دي ساسي»، هو الذي ترجم البيان الموجه للشعب الجزائري، وكان يستشار بانتظام في كثير من المسائل المتعلقة بالشرق من قبل وزارة الخارجية ووزارة الحربية(٥٢). وكان له ولغيره من المستشرقين ارتباط وثيق بالاستعمار واحتلال الدول العربية والإسلامية، فقد ظهر ذلك جليا في احتلال الجزائر، عندما مهدت فرنسا الاستدمارية لاحتلالها سنة ١٨٣٠ م بعدة دراسات لمستشرقين فرنسيين، فقد أرسلت فرنسا بعثة علمية مختصة في الآثار والحفريات (في الظاهر) وجواسيس (في الباطن)، بقيت هذه البعثة نحو عشرين سنة في الجزائر، تحولت فيها من مجرد دراسة حفريات وآثار إلى دراسة عقلانية منظمة. وقبل ذلك كانت قد تطورت فكرة علماء الحملة الفرنسية على مصر إلى مستشرقين لدراسة العالم العربي والإسلامي، فقامت عدة دراسات على الشعوب العربية والإسلامية، وكان في طليعة هؤلاء المستشرقين إدوارد لين الذي ألف كتابا عن عادات الشعب المصري وخصائصه.

أما ليون روش (LEON Roche) تلميذ دي ساسي فقد أعدّ «مشروع إستصدار فتوى من علماء الإسلام تمكن فرنسا المستعمرة الغازية من البقاء والاستقرار في الجزائر هادئة البال، وذلك بإخماد حركة الجهاد ضدها أيام المقاومة الشعبية التي كان يقودها الأمير عبد القادر الجزائري. وكان نص الفتوى التي باركها الحكام في فرنسا وشجعوها: "إذا دافع المسلم عن بلده أو تغلب عليها النصارى فيها ولكنهم أباحوا له شؤون دينه واحترموا نساءه

ومساجده، وهو يرجو أن يتحرّر من غلبتهم عليه ذات يوم، هل يجـب عليـه الجهاد أو يسقط ؟ وقد حصل روش باستعماله كل وسائل الترغيب والترهيـب على الموافقة على هذه الفتوى من الحجاز والأزهر والقيروان»(٥٣). .

ونبقى مع أعمال المستشرقين الفرنسيين المحترفين على وجه الخصوص، ونشير إلى دراسات»ليفي بروفنسال» (١٨٩٤ / ١٩٥٦ م) عن الأندلس، والتي تَبْرزُ فيها الروح الاستعمارية، وخاصة في مجال الصراع القبلي بين العـرب والبربر(٥٤).

ومن أراد دليلاً آخر فلينظر في أعمال المستشرق الفرنسي «ارنسـت رينـان» (١٨٢٣ / ١٨٩٢ م)، الذي كان يعمل مخطّطا للاستعمار الفرنسي(٥٥).

د. أثر الاستشراق الألماني في الثقافة العربية الإسلامية:

يرى الدكتور رضوان السيد أن أكبر تأثير للاستشراق الألماني في الثقافـة العربية الإسلامية، كان في مجال التاريخ والكتابة التاريخية، وجاء هدا التـأثير من كتاب "فلهاوزن" الموسوم: "الدولة العربية وسقوطها " وقد تُـرجم الكتـاب مرتين إلى العربية، في القاهرة ودمشق، وأثر في عدة أجيـال مـن البـاحثين العرب، أما في المجال الأدبي فكان كتاب "تاريخ الأدب العربي لبروكلمان"مـن أهم الكتب التي أثرت في الجانب العربي، واستفادت منـه عـدة أجيـال مـن الباحثين. ولا ينبغي تجاوز هنا ما تركه من تأثير كبير أيضا كتـاب ادم ميتـز "نهضة الإسلام " الذي صدر باللغة العربية بعنوان "الحضارة العربية قي القرن الرابع الهجري " أو "عصر النهضة في الإسلام "، وهو العصر الذي بلغت فيه الحضارة والعلوم والفنون الإسلامية، ذروتها، وقد طُبع الكتاب عـدة مـرات، واعتمدت عليه أيضا عدة أجيال من الباحثين والمصنفين، وكذلك كتاب: «شمس

العرب تسطع على الغرب» أو«أثر الحضارة العربية في أوروبا» للمستشرقة زيغريد هونكه، وهو كتاب يتناول الحضارة العربية والإسلامية، وقد استعان به عدد هام من الباحثين والدارسين، في القرن المنصرم، ولا يزال مصدراً هاماً للطلاب والباحثين إلى يومنا هذا. ومن ناحية أخرى لابد من ذكر الإسهام الذي قام به «المعهد الألماني للأبحاث الشرقية»الذي أنشأته جمعية المستشرقين الألمان في بيروت خلال السنة الدراسية: ١٩٦١/١٩٦٢م، وقد أصدر هذا المعهد عشرات النصوص العربية المحققة، ومئات الكتب المؤلفة بالألمانية، والانكليزية، وعقد المؤتمرات العلمية المتخصصة، والمواسم الثقافية السنوية (٥٦).

٢. آنا ماري شيمل عاشقة الشرق وزعيمة المستشرقين الألمان المنصفين:

أ.موجز ترجمتها:

ولدت آنا ماري شيمل CHIMMEl ANNA MARIES (2003/1922)بمدينة «ايرفورت الألمانية» في السابع من أفريل عام ١٩٢٢ م وتوفيت في مدينة «بون بألمانية »في كانون الثاني (يناير) عام ٢٠٠٣ م، عن عمر يناهز الثمانين عاما.

نشأت وحيدة في أسرة دينية بروتستانتية متوسطة الحال، وكان أبواها شغوفين بقراءة الشعرالكلاسيكي، وجمع الدواوين الشعرية، ومع ذلك لم يستهوها الشعر ولا الأدب الكلاسيكي (الغربي)، واتجهت نحو الشرق وروحانيته وحضارته، وبدأت تعلم اللغة العربية، وأتقنتها، ولم تكن قد تجاوزت الخامسة عشرة من عمرها، تقول هي عن نفسها «منذ الطفولة ارتبطت بالشرق، لا أدري متى توجعت نحو الإسلام والشرق، وكيف كان ذلك، ولكنني أتذكر أنني قرأت أول قصة جميلة شرقية وأنا بنت السابعة من عمري، وهذه

القصة هي التي جذبتني نحو الإسلام وحضارة الشرق، وجعلتهما مادة دراساتي وتخصصي، في الخامسة عشرة من عمري تعلمت العربية علــى يــد أســتاذ ألماني، ومنذ البداية كنت أحب العربية وأعشقها، حقاً كنــت أعشــقها، فبــدأت بمطالعة الكتب، والقصص العربية، حتى إننــي حفظــت جــزءاً كــاملاً مــن القرآن»(٥٧). ثم تابعت دراستها في جامعة برلين في قســم اللغــة العربيــة والدراسات الإسلامية، وحصلت على درجة الدكتوراه عام ١٩٤١ بموضــوع موسوم ب «الخليفة والقاضي في مصر، في أواخر القرون الوســطى» وكــان عمرها يومئذ تسعة عشر عاما، ثم حصلت على درجة الأستاذية عــام: ١٩٤٦ عن رسالتها:« البنية الاجتماعية للطلبة العسكريين في زمن المماليك في مصر »، أي في سن الرابعة والعشرين. وفي سنة ١٩٥١، حصلت على دكتوراه ثانية في تاريخ الأديان، وكان عنوانها: «الخليفة والقاضي في مصر فــي العصــور الوسطى ».

ثم حصلت على دكتوراه ثالثة في الفلسفة عام ١٩٥٢ م (٥٨).

ب. معرفتها باللغات:

تعلمت شَيمل عدة لغات، منها ست لغات شرقية، وهي: العربية، والفارسية، والتركية، والأردية، ولغة السند والبشتو، والبنجاب، وست لغات غربية، وهي: الألمانية، والانجلزية، والفرنسية، واللاتينية، والهولندية، وغيرها.لقد كانت تكتب دراساتها وكتبها بالألمانية، والانجلزية، ثم تترجمها بنفسها إلى اللغات الأخرى، لأنها كانت تشك في أن الآخــرين يســتطيعون أن ينقلــوا عمــق تحليلهــا وتصوراتها إلى لغة ثانية(٥٩).

ج. اتصالها بالعالم الإسلامي:

كانت شيمل مولعة بحب الشرق وروحانيته فدرست ثقافات الشرق ولغاته، فكان لزاما عليها بعد أن عرفت الشرق من خلال لغته، وثقافتـــه، أن تتعــرف عليه ميدانياً، فكان لها ما أرادت، ففي سنة ١٩٥٢ شدت الرحال إلـــى الشـــرق الأوسط «فسافرت إلى أول مدينة إسلامية هي اسطنبول للتحقيق في مخطوطات المكتبات، وزارت قبر جلال الدين الرومي(٦٠). في قوينة وبعدها تكـــررت زيارتها إلى تركيا، وتوثقت علاقاتها بأدباء تركيا وكتابها، وترجمت الكثير عن التركية، وحاضرت ودرّست، وتوثقت علاقاتها بالثقافة الإسلامية في تركيا التي يكشف عن حبها للإسلام مبكرا، ثم قبلت إدارة كرسي التاريخ أصول الأديـــان في جامعة الالهيات بأنقرة، وحينها كان في هذه الجامعة ٤٠٠ طالب وطالبة أصبحوا يدرسون القرآن والحديث وأصول الفقه والعربية إلى جانـــب الفلســـفة الأوربية وعلم الاجتماع الديني، وعلـــم الأديـــان المقـــارن بإشـــراف ســـيدة ألمانية(٦١).

وسافرت إلى بغداد والقاهرة واليمن، واشتركت في تأسيس مجلـــة «فكـــر وفن» الصادرة في ألمانيا إلا أن جل اهتماماتها انصبت على تركيـــا وإيـــران والهند وباكستان وأن أكثر إنتاجها العلمي كان من المصادر الفارسية والتركيـــة والأردية، إلا أن ذلك لا يعني عدم اهتمامها بالعربية، والـــبلاد العربيـــة، فقـــد اشتركت السيدة شيمل في تحرير مجلة«فكر وفن»FIKRAN WA FAN الصادرة في ألمانية باللغة العربية لمدة عشرة أعوام من عام: ١٩٦٣-١٩٧٣م، وكان آخر حضورها في الوطن العربي قبل وفاتها(يناير٢٠٠٣) هـــو زيـــارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض بالمملكـــة العربيـــة السعودية حيث حاضرت في المركز عن الأدب العربي في الهنـــد فـــي شـــهر نوفمبر ٢٠٠١م (٦٢).

د. مناصبها العلمية في الجامعات الشرقية والغربية:

قامت شيمل بالتدريس في عدة جامعات شرقية وغربية، في ألمانيا حيث عُيّنت أستاذة مساعدة في الاستشراق في جامعة«ماربورغ»، وهي في سن٢٣ من عمرها، وكانت تُدرس مختلف المواد عن الشرق والإسلام، كالآداب العربية والفارسية والتركية، والفن الإسلامي والتاريخ، ثم سافرت إلى تركيا، وقامت بالتدريس في جامعة أنقرة عام: ١٩٥٤م بكلية الشريعة الإسلامية، وكانت تُحاضر باللغة التركية، كما درّست الأدب التركي القديم، وعادت إلى ألمانية عام: ١٩٦١م، وعُينت أستاذة للأدب العربي والدين الإسلامي في جامعة«بون».وفي عام١٩٦٥ سافرت إلى كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية للمشاركة في مؤتمر تاريخ الأديان، فعرض عليها كرسي الثقافة الإسلامية في الهند في جامعة(هارفارد) الذي أسسه أحد الهنود المسلمين، وأوصى بأمواله لخدمة شعراء الهند المسلمين، وهناك قامت السيدة شيمل بتدريس مادة الخط الإسلامي، والأدب، والتصوف، ولغة الأردو في الهند، وأشرفت على ترجمة الآداب الإسلامية الهندية إلى الأنجلزية.كما قامت بتدريس الحضارة الإسلامية الهندية بالهند، وحاضرت في عدة جامعات أمريكية، وفي معهد الدراسات في لندن، بالإضافة إلى التدريس في جامعات تركيا، وألمانيا، والهند، وأمريكا، والسويد، فإنها رأست معهد«غوته» في بيروت، وكانت عضواً في كثير من الأكاديميات العالمية، وعضواً في دائرة المعارف الإسلامية للأديان، وكثير من المؤسسات الأخرى(٦٣).

هـ. مصنفاتها:

بلغت مصنفات ماري شيمل نحو ثلاثين كتاباً تتعلق بالتصوف، والتعريف بالإسلام، والدراسات الإسلامية المتخصصة وغيرها، نذكر منها:

١. الخليفة والقاضي في مصر أواخر عصر المماليك، وهي رسالة جامعية، ١٩٤٣.

٢. أخي إسماعيل: ذكريات عن تركيا، ١٩٩٠.

٣. كتاب: بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس«دراسة»، ١٩٤٥.

٤. مختارات من مقدمة ابن خلدون،(ترجمة من العربية إلى الألمانية)، ١٩٥١.

٥. مختارات من الشعر العربي المعاصر، ١٩٧٥.

٦. تعليم اللغة العربية، ١٩٧٥.

٧.الأسماء الإسلامية من علي إلى الزهراء، ١٩٧٣.

٨. محمد إقبال اللاهوري، (ترجمت له عدة دواوين هي: جاويدنامة، وجناح جبرائيل، ورسالة الشرق، وزيوم عجم).

٩. جلال الدين الرومي(ترجمت له وكتبت عنه: مختارات من ديوان شمس التبريزي، والرومي: حياة وتراث جلال الدين الرومي. والشمس المنتصرة.وأنظر إلى الحب...).

١٠. ماري شيمل: صوت الناي (مجموعة شعرية)، ١٩٤٨.

١١. ماري شيمل: المرأة الشرقية(مجموعة شعرية)١٩٩٨.

١٢. أدعية ومناجاة إسلامية(ترجمة من العربية إلى الألمانية).

١٣. محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بالإضافة إلى كل ذلك فقد كتبت وترجمت عن الشعر والشعراء في بلاد فارس وتركيا، والأدب العربي، ونشرت عدة مقالات في مجلة«فكر وفن» التي تصدر في ألمانيا باللغة العربية، وفي غيرها.

و. حبها للقرآن الكريم وانتقادها لسلمان رشدي:

لقد أحبت السيدة شيمل القرآن الكريم حُباً جماً، وقد حفظت جزءاً منه، وهي في العشرينيات من عمرها، وقد زينت جُدران منزلها بلوحات نُقشت عليها آيات قرآنية مكتوبة بالخطين الكوفي، والفارسي، وموشاة بماء الذهب نذكر ما جاء في بعضها:«وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهُوقا»(الإسراء-١٨-). وقد اهتمت بتصحيح ترجمة معاني القرآن، وتكميله إلى الألمانية عام: ١٩٦٠م التي كان قد أعدها سابقاً ماكس هينينغ (MAX HENNING)، وفي يوم استلامها جائزة الصلح للناشرين الألمان عام١٩٩٥م قالت:«لو أنني وأمثالي من الذين صرفنا أعمارنا لدراسة وتحقيق وكشف عالم الإسلام بأبعاده المختلفة، لو استطعنا أن نعرض الجانب الإيجابي والبناء من الإسلام على عامة الناس الذين يغلب عليهم عدم الاطلاع عليه إلا نادراً، لرأينا أن الهزة التي ستصيبنا كم هي عظيمة وشديدة، خصوصاً بعد هذه الأحداث التي حدثت خلال القرن الأخير في العالم الإسلامي.إن الكثير منا ينسى ذلك المقام العظيم للسيد المسيح وأمه العذراء مريم في القرآن، وأن القرآن كيف يصور ويمجد لنا تقوى وطهارة مريم»(٦٤).. ومن شدة اعتقادها بالقرآن وعمق رؤيتها فإنها افتتحت كل فصل من فصول كتابها«الشمس المنتصرة»THE TRIUMPHAL SUNحول أفكار جلال الدين الرومي بآية من آيات القرآن الكريم حسب سياق موضوع كل فصل (٦٥).

ويرى الشيخ أحمد زكي يماني أنها أسلمت، ولكنها كانت تُخفي إسلامها(٦٦).، ومما يُذكر لها، ويرفع من قدرها عند المسلمين كافة انتقادها لسلمان رشدي عند صدور كتابه:«آيات شيطانية»، وهجومها عليه، ووصفها له بالإلحاد«وأيدت ما قرره الإمام الخميني من إهدار دمه»(٦٧). وقالت:«إنني أعتقد أن ألمس بأحاسيس وعواطف جمع عظيم من المؤمنين، طريقة سيئة،

وإنني لا أستطيع أن أقبلها، إنني سوف أنتقد هذا الموقف حتى الموت.إن جماعات الضغط المؤيدين لسلمان رشدي لا يستطيعون أن يخيفوني، إن شخصية الرسول الأكرم، صلى الله عليه وسلم، في الغرب لم تُطرح بشكل صحيح ومناسب، وإن القليل فقط في أوروبا يعرفون أن رسول الإسلام هو مركز الولاء والمحبة لملايين المسلمين، وكم هذا الكلام يستثير مشاعرهم»(٦٨). وتساءلت هل يمكن أن يفعل ذلك بآيات الإنجيل؟ وهل كان العالم الغربي يسمح بذلك؟

ز. الجوائز والأوسمة:

حصلت ماري شيمل على جوائز لا حصر لها لما قدمته من خدمة للثقافة والعلم في الشرق والغرب، فقد نالت عدة دكتوراه فخرية من جامعة السند، وجامعة القائد الأعظم في باكستان عام: ١٩٧٥م، وجامعة بيشاور عام: ١٩٧٨م، وجامعة أوبسالا السويدية عام: ١٩٨٥م، وجامعة قوينة عام: ١٩٨٨م، وجامعة طهران عام: ١٩٩٨م. وعندما ورد اسمها في جائزة الصلح لجمعية دور النشر الألمانية، أو جائزة السلام للناشرين الألمان سنة: ١٩٩٥م، وهي أهم جائزة ثقافية اجتماعية، وقد أعدتها شيمل أهم جائزة حصلت عليها(٦٩).و«انقسم المثقفون الألمان بين معارض ومؤيد فالجميع متفقون على كفاءتها واستحقاقها الجائزة، ولكن الاختلاف يكمن في مواقفها فهي تدافع عن الإسلام والمسلمين، فهذا بحد ذاته يكسب لها أعداء من صفوف اليمين والصهاينة، وقد ثارت ثائرة هؤلاء عندما انتقدت سلمان رشدي وروايته «آيات شيطانية» التي صفق لها الغرب كثيراً ودعي سلمان رشدي لفرنسا تقديراً له وصدرت طبعة فرنسية لكتابه المذكور.وفي ألمانيا ارتفعت أصوات تحتج على منح آنا ماري شيمل جائزة الناشرين الألمان للسلام، ومع ذلك أحرزت على هذه الجائزة سنة١٩٩٥ وكانت رشحت من قبل اتحاد الكتاب الألمان لنيل جائزة

نوبل، ولكن أنى لها كذلك، وجائزة نوبل قد انحرفت عن أهـــدافها. المهـــم أن رئيس جمهورية ألمانيا رومان هيرتزوغ ألقى خطاباً بمناسبة تقديمـــه جـــائزة السلام لآنا ماري شيمل وقال في كلمته: إننا في حاجة إلى أشـــخاص يقومـــون بالربط بين الحضارات ونقل المعارف عنها، إن آنا ماري شيمل لديها الاستعداد والقدرة على تفهم ومعايشة التصورات والتجارب الغربية والقيام بتبليغ ذلك إلى غيرهم، وبذلك يستطيعون بناء جسور الثقة بين الشعوب. وقد تبرعـــت بقيمـــة الجائزة ومبلغها ١٥ ألف مارك ألماني لتمويل إقامة الطلبة والعلماء المســـلمين في ألمانيا لأغراض البحث العلمي» (٧٠).

ح. وصيتها: بتأسيس منتدى شيمل للحوار الثقافي

قبل وفاتها عام٢٠٠٣ أبت سيدة الاستشراق الألمانية أن تذهب قيم التفـــاهم والحوار الثقافي، التي نذرت حياتها من أجلها أدراج الرياح، لذلك فقد أوصـــت رفاق دربها بأن يجتمعوا في منتدى للحوار الديني والثقافي، يكون هدفه الأسمى ربط جسور الصداقة والتفاهم بين الغرب المسيحي، والشرق الإسلامي.

وقد بدأ حُلم شيمل يتحقق بتنفيذ وصيتها، فقد أسس رفاق دربهـــا منتـــدى، وسموه باسمها«منتدى آنا ماري شيمل للحوار الثقـــافي والـــديني»، ويرأســـه شخصان من ثقافتين وديانتين مختلفتين، هما: الأفغاني: غلام توتاخيل، الرئيس السابق للمجلس الإسلامي في ألمانيا، والألماني: كلاوس ليفرنغها وزن، المكلف السابق لحكومة ولاية شمال الراين وستفاليا بشؤون اندماج المهـــاجرين، وفـــي حوار لموقع المنتدى يؤكد كُلٌّ منهما على أسس القيم التـــي تجمعهمـــا، وهـــي الاحترام المتبادل رغم اختلاف العقيدة، وأن غايتهما هي تنفيذ وصية آنا ماري شيمل، لكي يبقى ما قامت به من خدمات علمية من أجل حوار الثقافات، وتفاهم الأديان، قائماً في القضايا السياسية الحالية، لذلك فإننا نرى أن من أهم أولوياتنا

أن نسلك نفس طريق آنا ماري شيمل، أي: طريق الحوار والنقاش، وأن نجمع ممثلي الأديان والثقافات، في منتدى واحد، لخدمة السلام، على حد قول الدكتور كلاوس.أما الهدف من ذلك فيتمثل في «تجنيب نشوء الصراعات بين الحضارات انطلاقاً من إيماننا بأننا إذا قمنا بالاستفادة من العلاقات المتواجدة في الأديان والثقافات، والتعايش السلمي مع الآخر، لعاد ذلك بالنفع على الجميع، وذلك بدلاً من استغلال هذه الطاقات بصورة سيئة لتعكير صفو التعايش السلمي وإراقة الدماء، على حد قول غلام توتاخيل»(٧١).

ط. فذلكة:

«خلال الفترة الطويلة من عمرها الذي امتد أكثر من ثمانين عاماً، قـدمت شيمل للغربيين بإخلاص وصدق كل ما كان في جعبتها من أجل تعريف الثقافة والحضارة والآداب الإنسانية الشرقية، وهي لم تصحح رؤية الغرب عن الإسلام فحسب، وإنما أثارت الباحث الشرقي والمسلم أيضاً لاستكشاف الكنوز الأدبيـة والروحية لتراثنا التي كانت مختفية في المكتبات وبين دفات الكتب.لقد كانـت شيمل تبتعد عن الموضوعات المثيرة للاختلاف، وتركز فـي نقـاط الوحـدة البشرية، لأنها أوجدت الأرضية المناسبة لتبادل الثقافات بين الشرق الإسـلامي والغرب المسيحي، واستطاعت بذلك أن تُرمم الصدع الذي أوجده المستشرقون الأوائل»(٧٢).

ومن الذين أنصفوا العرب والإسلام أيضا:

كارل بروكلمان (١٨٦٥/١٩٥٦ م) المستشرق الألماني، وهو عالم بتاريخ الأدب العربي، وصنّف بالألمانية كتابه المشهور تاريخ الأدب العربـي، وقـد تُرجم إلى اللغة العربية، وهو كتاب قيّم عدَّفيه أسماء الأدباء العرب من كتـاب وشعراء وعلماء وفلاسفة، وغيرهم، على نمط كتب الطبقات والتراجم، وهـو يذكر اسماء المصنفات والمؤلفات العربية في مختلف فروع العلوم والمعـارف والآداب على أسلوب فهرست ابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة وغيرهما من معاجم الكتب وفهارس المكتبات، ولبروكلمان كتب أخرى، منها : تـاريخ الشعوب الإسلامية، وكتاب في نحو اللغة العربيـة بالألمانيـة ومعجـم للغـة السريالية، وغيرها. وقد ألقى بروكلمان نظرة الفـاحص الخبيـر علـى الأدب العربي في مختلف أزمنته وأمكنتة. ويعد كتابه تاريخ الأدب العربي مـن أهـم

الكتب التي تساعد الطلاب الباحثين على معرفة أماكن المصادر والمراجع التي تهم أبحاثهم. ولكن بروكلمان قد أخطأ كثيرًا في كتابه هذا، وقد ذكر بعض هذه الأخطاء مولود قـاسم وزير التعليم الاصلي والشؤون الدنية الجزائري الأسبق في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م[١].

ومن هؤلاء المنصفين من يؤدي بهم البحث العلمي الخالص إلى اكتشاف حقيقة الإسلام فينقلبون إليه مسرورين ويدافعون عنه في أوساط أقـوامهم الغـربيين. ومنهم المستشرق الفرنسـي الفنـان (إتْـينّ دِينيـه ETIENNE DINET) (١٨٦١/١٩٢٩ م) الذي عاش في بلدة بوسعادة بالجزائر فأعجِـبَ بالإسـلام وأعلن إسلامه وسمّى نفسه « ناصر الدين ». لـه تصـانيف عـن الإسـلام بالفرنسية، منها محمد (Mohamed) صلى الله عليه وسلم، في السيرة النبوية، وقد ساعده في تأليفه العالم الجزائري سليمان بن إبراهيم، ولـه كتـاب اشـعة خاصة بنور الإسلام بيّن فيه تحامل قومه على الإسلام ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وقد توفي هذا المستشرق في فرنسا ونقل جثمانه إلى الجزائـر بوصية منه ودفن فيها[٢].

ومنهم : يوهان.ج. رايَسكِه (REISKE) (١٧١٦ / ١٧٧٤ م) ذلك العصـامي الألماني الذي كان ثمن تفانيه في دراسة الأدب والتاريخ العربيين أن تعـرض لاضطهاد فكري وعلمي من المتعصبين الذين ليست لدراستهم قيمة علمية[٣].

---

(١) المرجع نفسه، مج٣، ص : ١٦٥ وما بعدها. وانظر كتاب كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي، دار المعارف بمصر. من هذه الأخطاء التي ذكرها مولود قاسم رحمه الله، عندما سمى بروكلمان دول المغرب العربي بدول القراصنة. وكذلك استعماله لكلمة (Barbaresques) في غير معناها. وغيرها من الأخطاء الكثيرة...

(٢) الزركلي : الأعلام، مج١، ص : ٨٣، دار العلم للملايين، بيروت ومحاضرات الملتقى السادس للفكر الإسلامي، مج٤، ص : ٢٠.

(٣) محمد مغلي : المرجع السابق، ص : ٣٩٤.

وفي الجملة فإن معظم المستشرقين الألمانيين لم يخضعوا لغايات سياسية ودينية واستعمارية بسبب عدم تورط ألمانيا بالاستعمار، وقد تميّز الاستشراق الألماني بالدراسات الشرقية القديمة، والاهتمام بالآثار والآداب والفنون، وهذا النوع من الدراسات عادة يكون خاليا من الأغـراض السياسـية، وكـذلك غلـب علـى الاستشراق الألماني الروح العلمية، والموضوعية والتجرد والإنصاف، ومـرد ذلك إلى خصال الألمان المجبولة على الدقة والصبر والمنهج العلمي الصارم(١).

---

(١) صادق العبادي : المرجع السابق، ص : ١١٧. وانظر أيضا : ساسي سالم الحاج : نقد الخطاب الاستشراقي (فصل خصائص الدراسات الاستشراقية في ألمانيا، دار المدار الإسلامي، طرابلس).

(٢) مولود قاسم (وزير الشؤون الدينية في الجزائر سابقا) تعقيب وتوضيحات على محاضرة الدكتور عبد الله العروي الموسومة : الثقافة الإسلامية في مرآة الغرب، محاضرات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م، ص : ١٦٦.

ثانيا المتعصبون

المتعصبون، وهم الغالبية، أكثرهم جواسيس اشتغلوا بالاستشراق، وهؤلاء ليست لدراساتهم قيمة علمية. فللاستشراق دور لا يُرتابُ فيه في تمهيد الأرض العربية والإسلامية للاستعمار الغربي، ولكن ليس كل مستشرق ضالعًا في ذلك. فكلنا نعلم كيف نشأ الاستشراق.

نعلم كلنا أن بيسمارك (BISMARCK) هو الذي أنشأ مدرسة اللغات الشرقية في ألمانيا وألحقها بوزارة الخارجية، ولم يلحقها بوزارة المعارف، ولم يلحقها بكلية الآداب ولا بالجامعة، وإنما ألحقها بوزارة الخارجية، لماذا ؟ لأغراض سياسية طبعا، لأغراض سياسية واضحة، ولنشر النفوذ، وكذلك ينبغي أن يقال لأعمال الجوسسة أيضا، وكذلك في فرنسا فمدرسة اللغات الشرقية في باريس، كيف نشأت لم تلحق بالسّوربون ولم تلحق بالجامعة، وإنما ألحقت بالكيدورسي (Quai d'orsay)، ألحقت بوزارة الشؤون الخارجية، وماسينيون (Massignon) المستشرق الفرنسي المعروف كان من كبارها، وكان جاسوسا في الشرق، وينبغي أن نعرف ذلك جيدا، لقد بذل ماسينيون وكثير من أمثاله جهودا كبيرة لتخريب العقل العربي والإسلامي، وتنويمه عن طريق تمجيد التصوف الكاذب، وإشاعة الخرافات والأباطيل وإبراز دور الحلاج والرقاصين والدراويش على نحو ما نراه في مؤلفاته[٢]. لقد خصص ماسينيون حياته للكتابة عن الحلاج، فجعله صورة مشوهة، ويبدو « أنَّ (ماسينيون)، ما كان يُعنَى بالحلاَّج قدر عنايته بتنفيذ مخطط استعماري أحكم صنعه، فقد ملأ كتابه الضخم عن الحلاج بحشد هائل من الخرافات والترهات والأباطيل، حتى يعمق الهوة بين طائفتين توجدان بالجزائر : طائفة تتمسك بالقديم، فتنساق حسب ظنه إلى اعتقاد أن هذه الخرافات والهذيانات هي صميم الإسلام، وطائفة مثقفة بالثقافة

الحديثة تتجه في اعتقاده، من جانبها إلى السخرية والزراية بهذا الإسلام الخرافي بل من الإسلام كله »(١). ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أنَّ (لويس ماسينيون هذا) « كان مستشار في وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون الشمال الإفريقي والراعي الروحي للجمعيات التبشرية الفرنسية في مصر، وخدم بالجيش الفرنسي خمس سنوات في الحرب العالمية الأولى »(٢). وقد استطاع هذا المستشرق وأمثاله أن يعيثوا في عقول الناس فسادا وإفسادا، وأن يؤثروا في بعض ضعاف العقول من (الطرقيين) في الجزائر الذين أصبحوا يرددون خرافات هؤلاء المستشرقين، ويقولون : «اعتقد ولا تنتقد»، أي: لا تنتقد فرنسا، وأنّ الله هو الذي جاء بها إلى الجزائر، وهو الذي سيخرجها متى شاء... ولكن عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، حاربهم بفكره النير من خلال جريدة « المنتقد »، التي أصدرها خصيصا للرد على هؤلاء الطرقيين والمتصوفيين الذين ساروا في هذا الاتجاه الاستعماري الخبيث.

ومثله المستشرق الفرنسي أيضا دي ساسي (١٨٥٨ / ١٨٩٢ م) الذي كان يشغل منصب المستشرق المقيم بوزارة الخارجية الفرنسية منذ عام ١٨٠٥ م. وعندما غزا الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ م، كان « دي ساسي»، هو الذي ترجم البيان الموجه للشعب الجزائري، وكان يستشار بانتظام في كثير من المسائل المتعلقة بالشرق من قبل وزارة الخارجية ووزارة الحربية[١].

---

(١) د.محمود قاسم : الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، ص : ٧. وانظر أيضا، ص : ٣٥ وما بعدها.

(٢) د.محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص : ٥٥٦.

(١) علي النملة : المرجع السابق، ص : ٦٨.

(٢) انظر مقالة أبي القاسم سعد الله في مجلة المنهل السعودية العدد ٥٣٤، شهر أوت ١٩٩٦ م، نقلا عن الدكتور عبد الكريم بكري : صورة الإسلام في الفكر الاستشراقي القديم

وكان له ولغيره من المستشرقين ارتباط وثيق بالاستعمار واحتلال الدول العربية والإسلامية، فقد ظهر ذلك جليا في احتلال الجزائر، عندما مهدت فرنسا الاستدمارية لاحتلالها سنة ١٨٣٠ م بعدة دراسات لمستشرقين فرنسيين، فقد أرسلت فرنسا بعثة علمية مختصة في الآثار والحفريات (في الظاهر) وجواسيس (في الباطن)، بقيت هذه البعثة نحو عشرين سنة في الجزائر، تحولت فيها من مجرد دراسة حفريات وآثار إلى دراسة عقلانية منظمة. وقبل ذلك كانت قد تطورت فكرة علماء الحملة الفرنسية على مصر إلى مستشرقين لدراسة العالم العربي والإسلامي، فقامت عدة دراسات على الشعوب العربية والإسلامية، وكان في طليعة هؤلاء المستشرقين إدوارد لين الذي ألف كتابا عن عادات الشعب المصري وخصائصه.

أما ليون روش (LEON Roche) تلميذ دي ساسي فقد أعدّ « مشروع إستصدار فتوى من علماء الإسلام تمكن فرنسا المستعمرة الغازية من البقاء والاستقرار في الجزائر هادئة البال، وذلك بإخماد حركة الجهاد ضدها أيام المقاومة الشعبية التي كان يقودها الأمير عبد القادر الجزائري. وكان نص الفتوى التي باركها الحكام في فرنسا وشجعوها : "إذا دافع المسلم عن بلده أو تغلب عليها النصارى فيها ولكنهم أباحوا له شؤون دينه واحترموا نساءه ومساجده، وهو يرجو أن يتحرّر من غلبتهم عليه ذات يوم، هل يجب عليه الجهاد أو يسقط ؟ وقد حصل روش باستعماله كل وسائل الترغيب والترهيب على الموافقة على هذه الفتوى من الحجاز والأزهر والقيروان" »[٢].

ونبقى مع أعمال المستشرقين الفرنسيين المحترفين على وجه الخصوص، ونشير إلى دراسات « ليفي بروفنسال » (١٨٩٤ / ١٩٥٦م) عن الأندلس،

والحديث، مقال منشور في مجلة المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر، العدد الأول، سنة ١٩٩٨ م، ص : ١٤٦.

والتي تَبْرزُ فيها الروح الاستعمارية، وخاصة في مجال الصراع القبلي بين العرب والبربر[1].

ومن أراد دليل آخر فلينظر في أعمال المستشرق الفرنسي «ارنست رينان» (١٨٢٣ / ١٨٩٢ م)، الذي كان يعمل مخطّطا للاستعمار الفرنسي[2].

الهولنديون، هم أيضا ولِجُوا عالم الاستشراق المحترف المسيء إلى الاستشراق كدراسة علمية أو كمقابة موضوعية كالفرنسيين.

ومن أعلام الاستشراق الهولندي في القرن السابع عشر نذكر على الخصوص «يعقوب خوليوس » (Golius) (١٥٩٦ / ١٦٦٧م)، الذي عمل أستاذ اللغة العربية ومادة الرياضيات وأنشأ فيما بعد أول مرصد فلكي هولندي في ليدن عام ١٦٣٣ م. وقد لعب خوليوس دورا بارزا في اقتناء مخطوطات كثيرة باللغة العربية أغنى بها مكتبة جامعة ليدن، ولكن أخطر ما اتصف به المستشرق خوليوس، على غرار معظم المستشرقين الهولنديين، هو كراهيته للعرب والمسلمين والإسلام على وجه الخصوص، الذي أحدث في رأيه جراحا عميقة إذا تركناها ستعدي جزءا كبيرا من البشرية[3].

---

(١) علي النملة : المرجع السابق، ص : ٧٠. وليفي بروفنسال : مستشرق فرنسي ولد في الجزائر، له آثار كثيرة تركزت في مجملها على الأندلس.

(٢) انظر إدوارد سعيد : الاستشراق، ص : ٧٠ و ٧٣. وله أعمال في السامية ويعد من الفلاسفة.

(٣) الدراسات العربية في هولندا، ص : ١٧. نقلا عن إسماعيل العثماني : قراءة في الاستشراق الهولندي، مقال منشور في مجلة المشكاة المغربية، العدد ٢٩، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م، ص : ٢٦ – ٢٧.

(٤) يوسف عز الدين : الاستشراق وبواعثه وما له وما عليه، مجلة المشكاة المغربية، العدد ٢٩، ١٩٩٨ م، ص : ١٧.

فذلكة

وأخيرا، ليس الاستشراق كلّه سيئا، وليس كله حسنا، وعلينا دراسة التيارات المختلفة، وتشجيع المحايد والمتعاطف والمخلص، ولا نقف أمامهم باستفزاز وعصبية وإنما احتواء هؤلاء بالطيب من كل شيء، لأن رد الفعل سيكون أكثر استفزازا[٤].

أمّا النتيجة الحاسمة التي يقررها المفكر الجزائري مالك بن نبي بعد التحليل المتأني والشواهد المختلفة التي قدمها في كتابه : إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، فهي : أن الإنتاج الاستشراقي بكلا نوعيه، كان شرًّا على المجتمع الإسلامي، لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان، سواء في صورة المديح والإطراء التي حولت تأملاتنا عن واقعنا الحاضر، وغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا. وفي صورة التفنيد والإقلال من شأننا، بحث صيرتنا حماة الضيم عن مجتمع منهار، مجتمع ما بعد الموحدين... وعلى كل حال، فإن أمكننا أن نصرح بأنّنا تجد على كل وجه، جانبا إيجابيا في هذا الاستشراق فإننا لا نجده في صورة المديح، بل في صورة التفنيد[١].

أمّا الدكتور أكرم ضياء العمري، فيؤكد في كتابه موقف الاستشراق من السيرة والسنة النبوية « أن الاستشراق حقق كثيرا من أغراضه لكنه لم يستنفد تلك الأغراض، لذلك هو يواصل التأليف ويواصل الحوار في الندوات والاجتماعات الإقليمية والاجتماعات الدولية، وهو ماض بمؤسساته الضخمة وإمكانات نشره الهائلة، يصدر دورياته الثلاثمائة التي تتناول المسلمين من شتى النواحي، وإذا كان الأمر كذلك فما العمل ؟

(١) مالك بن نبي : إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص : ١٧. نقلا عن محمد مغلي : المرجع السابق، ص : ٤١٨ – ٤١٩.

العمل يتلخص في جانبين :

الأول: أن نمثل أنفسنا أمام أنفسنا، بأن تقوم مؤسساتنا العلمية برسم الصورة الثقافية، والتاريخية، والعقدية لأمة الإسلام دون أن نخضع للأفكار المسبقة التي رسمها المستشرقون، فهذا جانب مهم وأولي، وهو أحرى بالاهتمام لأن فيه تحصينًا للأمة.

والثاني: يتحقق إذا بلغنا المستوى المناسب من تهيئة أصحاب الخبرات فنقوم عندئذ بتمثيل أنفسنا أمام الآخرين »[1].

ذلك هو الموقف الذي لا بد من تبنيه في مواجهة هذا الجزء من قضية الصراع الحضاري، وسوف يتحقق هذا الهدف إذا شجعنا البحث العلمي في البلاد العربية والإسلامية بالوسائل المادية والمعنوية.

---

(١) المرجع السابق، ص : ٤٧.

هوامـــش ومراجـع

(١) علي إبراهيم النملة: الاستشراق في الأدبيات العربيـة..، ص: ٩، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسـات الإسـلامية، الريـاض، ١٤١٤ هـ/١٩٩٣ م.

(٢) انظر د.عبد النبي الصطيف: حوار الحضارات في عصر العولمـة في كتاب محاضرات في حوار الحضارات، ص: ٣٢٣ وما بعدها، نشر المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، ط٢، ١٤٢١ هـ/٢٠٠١ م.

(٣) يوسف عز الدين: الاستشراق وبواعثه وماله وما عليـه، مقـال منشور في مجلة المشكاة المغربية، العـدد: ٢٩، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م، ص: ١٤.

(٤) علي النملة: المرجع السابق، ص: ١٣ وما بعدها. وانظر مجلـة الفيصل التي تصدر في المملكة العربية السعودية، العـدد: ٣٢٢ ربيع الآخر ١٤٢٤ هـ/يونيو ٢٠٠٣ م، ص: ١٣٢.

(٥) د.أحمد طالب الإبراهيمي: حوار الحضارات، مقال منشـور فـي كتاب العربي «الإسلام والغرب»، ص: ١١٥، يوليو ٢٠٠٢ م.

(٦) عدنان محمد وزان: الاستشراق والمستشـرقون: وجهـة نظـر (سلسلة دعوة الحق (٢٤)، مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م، ص: ١٥.

(٧) انظر: عمر فَرّوخ: «الاستشراق في نطـاق العلـم وفـي نطـاق السياسة» في كتاب: الإسلام والمستشرقون، تـأليف نخبـة مـن العلماء المسلمين، جدة، دار المعرفـة، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م.

وانظر أيضا: عبد الرحمن حسن جبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، ص: ٥. اقتبسه: محمد البشير مغلي في كتابه: مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، ص: ٤١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠٢ م.

(٨) إدوارد سعيد: الاستشراق (تعريب كمال أبي ديب)، ص: ١٠١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٤ م.

(٩)مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص: ٥٠، دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

(١٠) أحمد سما يلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص: ٢١-٣٨، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ م.

(١١)محمد حسين الصغير: المستشرقون والدراسات القرآنية، ص: ١١-١٣، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.

(١٢)محمد عبد الغني حسن: عبد الله فكري (سلسلة أعلام العرب)، ص: ٨٩، الدار المصرية للطباعة، القاهرة (د.ت).

(١٣)محمد حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص: ١٧-١٨، الدوحة، قطر، ١٤٠٤ هـ.

(١٤) (Loc, Cit) نقلا عن محمد البشير مغلي: مناهج البحث في الإسلاميات.. ص: ٣٩. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠٢ م.

(١٥) عبد الوهاب حمودة: من زلات المستشرقين، ص: ٢٧، اقتبسه محمد البشير مغلي: المرجع نفسه، ص: ٢٦.

(١٦) D.E. Larousse, p 646 نقلا عن محمد البشير مغلي: المرجع نفسه، ص: ٣٦. وقد استعنا به في معظم هذه التعريفات.

(١٧) السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص: ١٠٧. نقلا عن محمد البشير مغلي، المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(١٨) علي الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص: ٦٩. نقلاً عن محمد البشير مغلي: المرجع نفسه، ص: ٣٧.

(١٩) محمد البشير مغلي: المرجع السابق، ص: ٣٧.

(٢٠) د.عبد الحليم عويس: مواجهة التحدي الاستشراقي من آفاق الدعوة الإسلامية في القرن الخامس عشر الهجري أعمال الملتقى الرابع عشر للفكر الإسلامي، الجزائر، شوال ١٤٠٠ هـ/أغسطس، سبتمبر ١٩٨٠ م. منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ص: ٢٣١.

(٢١) علي النحلة: المرجع السابق، ص: ١٣-١٤. وانظر ص: ٢٣ وما بعدها.

(٢٢) السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص: ١٩-٢١. نقلا عن محمد مغلي: المرجع السابق، ص: ٤٥.

(٢٣) علي النملة: المرجع السابق، ص: ٢٣٢. والحقيقة أن هناك من برز في العمل الاستشراقي قبل باستيل، فقد نشأ الاستشراق على أيدي الرهبان الذين تثقفوا في الأندلس من أمثال «جربرت JERBERT»، الذي اعتلى منصب البابوية باسم سلفستر الثاني (٩٩٩ - ١٠٠٣) م، و«بطرس المحترم PIERRE LEVENE» (١٠٩٢-١١٥٦) م، و«جيرار دي كريمون

«GERARDDE CREMONE» (١١١٤-١١٨١) م، وغيرهم...

(٢٤) إدوارد سعيد: الاستشراق، ص: ١٩.

(٢٥) نذير حمدان: الرسول صلى الله عليه وسلم، في كتابات المستشرقين، ص: ٣٤، دار المنارة، جدة، ١٤٠٦ هـ.

(٢٦) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص: ١٩.

(٢٧) عدنان محمد وزان: الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر، ص: ٢٨ – ٢٩، دار المنار، جدة، ١٤٠٦ هـ.

(٢٨) نجيب العقيقي: المستشرقون، ج١، ص: ١٢٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ م.

(٢٩) علي النملة: المرجع السابق، ص: ٢٩.

(٣٠) محمد مغلي: المرجع السابق، ص: ٥٣. وانظر ما بعدها.

(٣١) علي النملة: المرجع السابق، ص: ٤٠. وانظر ما بعدها.

(٣٢) إدوارد سعيد: المرجع السابق، ص: ٧٤.

(٣٣) د.عبد الحميد عويس: المرجع السابق، ص: ٢٣٢-٢٣٣.

(٣٤) د.محمد العلوي مالكي: موقف المستشرقين من السنة بحث منشور في أعمال الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص: ٦، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر.

(٣٥) المستشرقون والإسلام للبان، والاستشراق للسباعي، نقلا عن د.محمد العلوي مالكي: المرجع السابق، ص: ٦.

(٣٦) أنظر بحثنا: الاستشراق والمستشرقون بين الإنصاف والتجني، مجلة بونة للبحوث والدراسات، التي تصدر بالجزائر، العدد: ٠٣- ٢٠٠٥م، ص: ١١٥، وما بعدها.

(٣٧) د. زيغريد هونكه: دور الفكر الإسلامي في ميلاد النهضة في أوربا: كيف استطاعت الثقافة الإسلامية أن تمارس تأثيرها القوي في أوربا بالذات ؟ محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي المنعقد بمدينة عنابة (الجزائر) في الفترة: ١٢ - ٢١ رجب ١٣٩٦ هـ /١٠ - ١٩ يوليو 1976 ، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ١٩٧٦ م. مج١، ص: ١٠٢- ١٠٣.

(٣٨) محمد عوني عبد الرؤوف: جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤، ص، ٢٤.(نقلا عن: د الحسين الإدريسي: عرض كتاب: خدمات المستشرقين للتراث العربي (المستشرقون الألمان نموذجا) مجلة الرافد التي تصدر عن دائرة الثقافة والأعلام بالحكومة الشارقة، العدد: ١٤٦، شوال (١٤٣٠هـ/ اكتوبر ٢٠٠٩.ص: ١٣ ونرمز له ب«بجهود المستشرقين في التراث العربي ودوما نقلا عن الرافد – العدد: ١٤٦ ص: ١٣ وما بعدها ».

(٣٩) محمد عوني: المرجع نفسه، ص: ٢٥.

(٤٠) المرجع نفسه، ص: ٢٦.

(٤١) المرجع نفسه، ص: ٢٧.

(٤٢) محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة: ١٩٧٢م، مج٣، ص: ١٦٥ وما بعدها. وانظر كتاب كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، دار المعارف بمصر.

من هذه الأخطاء التي ذكرها مولود قاسم رحمه الله، عندما سمى بروكلمان دول المغرب العربي بدول القراصنة. وكذلك استعماله لكلمة (Barbaresques) في غير معناها. وغيرها من الأخطاء الكثيرة...

(٤٣) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص: ٨، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

(٤٤) المرجع نفسه، ص: ٠٧.

(٤٥) المرجع نفسه، ص: ٠٧.

(٤٦) محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م، مج٤، ص: ٤٢.

(٤٧) صادق العبادي: آنا ماري شيمل: السفير الثقافي بين الشرق والغرب، مقال منشور في مجلة الفيصل السعودية، العدد: ٣٢٢، ربيع الأخر ١٤٢٤هـ / يونيو ٢٠٠٣، ص: ١١٧.

(٤٨) الدكتور مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون (مالهم وما عليهم)، ص: ٣٣، دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م.

(٤٩) مولود قاسم (وزير الشؤون الدينية في الجزائر سابقا) تعقيب وتوضيحات على محاضرة الدكتور عبد الله العروي الموسومة: الثقافة الإسلامية في مرآة الغرب، محاضرات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م، ص: ١٦.

(٥٠) د.محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، ص: ٧. وانظر أيضا، ص: ٣٥ وما بعدها.

(٥١)د.محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص: ٥٥٦.

(٥٢) علي النملة: المرجع السابق، ص: ٦٨.

(٥٣) انظر مقالة أبي القاسم سعد الله في مجلة المنهل السعودية العدد ٥٣٤، شهر أوت ١٩٩٦ م، نقلا عن الدكتور عبد الكريم بكري: صورة الإسلام في الفكر الاستشراقي القديم والحديث، مقال منشور في مجلة المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر، العدد الأول، سنة ١٩٩٨ م، ص:١٤٦.

(٥٤) علي النملة: المرجع السابق، ص: ٧٠. وليفي بروفنسال: مستشرق فرنسي ولد في الجزائر، له آثار كثيرة تركزت في مجملها على الأندلس.

(٥٥)انظر إدوارد سعيد: الاستشراق، ص: ٧٠ و٧٣. وله أعمال في السامية ويعد من الفلاسفة.

(٥٦)د.رضوان السيد: المستشرقون الألمان: النشوء والتأثير ووالمصائر، بيروت، لبنان (نقلا عن: د. محمد.م.الارناؤوط: الاستشراق الألماني: بما يختلف عن غيره ؟ مقال منشور في موقع مركز دراسات العالم الإسلامي – جامعة ال البيت، بتاريخ: ٢٠٠٧/٠٥/١٩ ص: ٦ «بتصرف».

(٥٧)صادق العبادي: المرجع السابق، ص: ١١٢.

(٥٨) سعدي بزيان: وقفة مع المستشرقة الألمانية الراحلة ماري شيمل، مقال منشور في جريدة صوت الأحرار الجزائرية، العدد: ١٩٨٠، ٠٢ سبتمبر ٢٠٠٤، ص: ١٦.

(٥٩)صادق العبادي: المرجع السابق، ص: ١١٤.

(٦٠)نفسه، ص: ١١٩.وجلال الدين الرومي(٦٠٤-٦٧٠هـ)مولانا محمد بن بهاء الدين البلخي الرومي، فقيه حنفي، ومن أكابر شعراء الصوفية، هاجر أبوه من كابول إلى قونية في سنة: ٦١٦هـ.من كتبه المهمة:«مثنوي معنوي» الذي يحتوي ٣٢٠ألف بيت في قضايا الأخلاق والعرفان والدين، والتربية.ترجم إلى العربية أولاً بواسطة عبد الوهاب عزام، القاهرة، ١٩٤٦م، وآخر ترجمة للدكتور إبراهيم الدسوقي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦م.

(٦١) صادق العبادي: المرجع السابق، ص: ١١٢.

(٦٢) صادق العبادي: المرجع نفسه، ص: ١١٦.

(٦٣)صادق العبادي: المرجع السابق، ص: ١١٦.

(٦٤)المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٦٥)المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٦٦)د.رضوان السيد: نشوء الاستشراق الألماني وتطوراته المبكرة، مقال منشور في جريدة عكاظ، العدد: ٩٤٦٨، ٣٠أكتوبر، ٢٠٠٤م، ص: ٥.

(٦٧) د.الحسيني الإدريسي: خدمات المستشرقين للتراث العربي، مقال منشور في مجلة الرّافد، العدد: ١٤٦، أكتوبر٢٠٠٩م، ص: ١٧.

(٦٨) في مقابلة مع تلفاز ألمانيا(A.R.D)، خوان عرفان، ص: ٢٩،(اقتبسه صادق العبادي في المرجع السابق، ص: ١١٩).

(٦٩) صادق العبادي: المرجع السابق، ص: ١١٩.

(٧٠)سعدي بزيان: المرجع السابق، ص: ١٦.

(٧١) علاء الدين سرحان: موقع منتدى آنا ماري شيمل للحوار الديني والثقافي، ص: ٠٢.

(٧٢) صادق العبادي: المرجع السابق، ص: ١١٥.

ثالثا ملاحق: من أعلام المستشرقين

ملحق ١: جوستاف فلوجل والتراث العربي

إن آثار الفكر العربي الإسلامي في دراسات السابقين –من علماء الأمة الإسلامية– كانت ولا تزال موضع اهتمام كبير لدى الدارسين المتخصصين في الشرق والغرب على سواء.

وما زال البحث في المخطوطات يكشف الجديد من آثار هؤلاء العلماء السابقين.. وقد شغل الاستشراق الأوربي نفسه منذ زمن بعيد بمباحث شتى تتصل بالدراسات العربية والإسلامية، وتنوّعت جهود هؤلاء المستشرقين كما تنوعت بواعثهم، وكان الزيغ والنيل من الإسلام هوى فريق منهم فإن الحق والنصفة كان هوى فريق آخر حتى وإن ليس الأمر عليهم لغياب بعض الحقائق عنهم أو لغموض جوانب من أسرار اللغة العربية عليهم، ذلك إن محاولة فهم القرآن الكريم والخوض في مباحثه وعلومه تحتاج إلى مستوى خاص من الدقة والتمكن في فهم أسرار اللغة لأنّ ذلك دائما وبداية الطريق إلى محاولة البحث والفهم والتحليل.

ومع ذلك كله فإن بعض المستشرقين استطاعوا بجهود صادقة وصابرة وعلم وافر غزير أن يخدموا التراث العربي وأن يسهموا إسهاما إيجابيا يتمتع بكل خصائص الروح العلمية الفذّة في مناهجها الحديثة وبصرها الدقيق بالتحليل والمراجعة والاقتراح والفرض.

ولعل من أنجح الجهود التي بذلها المستشرقون في خدمة التراث العربي تلك الجهود التي عنيت بالتحقيق والتصنيف، لأنها قدمت التراث العربي في أقرب صورة ممكنة من الكمال، ودلّت على فكرة اقترحتها أو كلمة رجحتها على غيرها مع العناية بالإشارة إلى المصادر القديمة والحديثة التي استشارها

والعناية بجمع نسخ المخطوطات التي اعتمد عليها الباحث المحق. ويعدّ فن التحقيق عملا جديدا لهم أخذه العرب المحدثون عنهم ثم أصبحوا ذوي أصالة ورسوخ فيه لوثاقة معارفهم بأسرار لغتهم وتاريخها ومباحث علومها وفنونها. ومن أبرز الذين خدموا التراث العربي العلاّمة جوستاف فلوجل، المستشرق الألماني.

ولد المستشرق جوستاف فلوجل في Sachsen وتلقى دراساته الأولية في موطنه ودرس اللغات الشرقية والإلهيات في ليبزيج (١٨٢١-١٨٢٤) على يد المشاهير من علمائها، وأجيز عن دراسته للغات الشرقية، ثم أقام في فيينا عامين اشتغل فيهما بالتدريس ومطالعة مخطوطات مكتبة هامر بورجستال، ثم انتقل بعد ذلك إلى باريس فقضى فيها بعض الوقت بين المكتبة الزطنية، وبين تلقّي دروس المستشرق الفرنسي الشهير «دي ساس» صاحب الدراسات القيمة في المقارنات بين الأدبين العربي والفرنسي في العصر الحديث.

ثم رجع فلوجل إلى ألمانيا سنة ١٨٣٠، وهناك عين أستاذا للغات الشرقية في معهد «ميسان الملكي» وفي سنة ١٨٣٢ عهد إليه بوضع فهرس للمخطوطات العربية والفارسية والتركية الموجودة في المكتبة القيصرية بفيينا، فقام بهذا العمل في صيف سنوات (٥١-٥٣-١٨٦٢).

وبهذا الجهد توافر لديه من المعرفةبتراث هذه اللغات ما لم يتوافر للكثيرين من زملائه المستشرقين...

وقد توفي فلوجل في «درسدن» عام ١٨٧٠ عن ثمانية وستين عاما كلّها نماء وعطاء، وكان حظ المكتبة العربية من جهوده حظا طيبا موفورا سوف يظل يحتل مكانة مرموقة فيها.

أبرز الآثار العلمية التي قدمها فلوجل:[٣٠]

١-نشر النص القرآني الكريم باللغة العربية قبل ظهور الطباعة في الشرق وذلك عام ١٨٤٢ وهو النص الذي اعتمد عليه في تأليف كتابه «نجوم الفرقان» وسوف نتاول ذلك بعد قليل بالدراسة.

٢-نجوم الفرقان في أطراف القرآن (١٨٤٢) وهو فهرس للمفردات الواردة في القرآن، وسوف نتاوله بالدراسة ونعرف علاقته بكتاب المعجم المفهرس للمرحوم الأستاذ فؤاد عبد الباقي.

٣-نشر كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة بعد تحقيقه وترجمته إلى اللاتينية ومع فهارس وملاحق في سبعة مجلدات.

٤-قام بتحقيق كتاب الفهرست لابن النديم وقدم حوله دراسات علمية هامّة سوف نعرض لبيان أبرز خطوطها والجهود التي بذلت حولها، وحتى الآن ليس هناك جهد جديد حول هذا المؤلف القيم الذي بذل فلوجل من أجل إخراجه خمسا وعشرين سنة.

٥-أعد بمشاركة اثنين من زملائه وصفا شاملا للمخطوطات العربية والفارسية والتركية الموجودة في مكتبات ميونيخ، ويقع هذا الفصل في ثلاثة مجلّات تشغل ١٩٩٠ صفحة.

٦-نشر كتاب التعريفات للجرجاني (الأستانة ١٨٣٧ - ليزيج ١٨٤٥).

٧-قدم دراسة عن الكندي - الفيلسوف العربي كنموذج لعصره وشعبه (١٨٥٦).

٨-قدم دراسة عن تاريخ الآداب العربية (١٨٣٤).

٩-قدم دراسة عن مدارس العرب النحوية وهي تشمل نحاة العرب حتى الجيل العاشر (١٨٦٢ ليبزيج).

([30]) راجع: فهارس المكتبة الوطنية بباريس (بدار الكتب المصرية)، المستشرقون: نجيب العقيقي، ج٢ ص ٧٠١، فرهنا فارس وكترمعين.

١٠- نشر كتاب مؤنس الوحيد للثعالبي (المتن العربي وترجمة ألمانية ١٨٢٩).
١١- نشر رسالة في مصطلحات الصوفية لابـــن عربـــي (ليبـــزيج ١٨٤٢)
١٢- نشر كتاب ترتيب طبقات الفقهاء (مجلّة الأخبار الشرقية).
١٣- ونشر كتاب التراجم لابن «قطلوبغا» مع فهرس بأسماء الرجال وتعليقات بالألمانية (ليبزيج ١٨٦٢).
١٤-

ملاحظات حول بعض هذه الآثار

أولا: نجوم الفرقان في أطراف القرآن:

يلاحظ أن كلمة الأطراف هنا تعني الايات وللكلام عن هذا الكتاب لا بد من الكلام عن المصحف الذي اعتمد عليه في تتبع المفردات أو الألفاظ القرآنية.

والواضح أنّ فلوجل نشر النص القرآني الكريم بلغته العربية قبل انتشـــار الطباعة في الشرق وبمراجعة فهارس دار الكتب المصرية وجـــدت مصـــحفا شريفا كتبت عليه كلمة القرآن وتحتها عبارة «وهو الهدى والفرقـــان»، وهـــذا المصحف ليس مدونا عليه مكان الطبع، ولكن بمقارنته مع كتاب نجوم الفرقان في فن الطباعة وفي خط العنوان يرجح بل يؤكد أنه مطبوع في ليبزيج جيـــث طبع نجوم الفرقان ويفهم الدارس مما ذكره الأستاذ Johannruck فـــي كتابـــه الدراسة العربية في أوربا، أن فلوجل هو الذي نشر نص المصحف الشـــريف قبل تصنيفه لكتاب نجوم القرآن، وقد نص على ذلك أيضا الأستاذ محمد فـــؤاد حيث يقول في مقدمة معجمه «ولما كان صاحب نجوم الفرقان إنما اعتمد على مصحفه الذي طبعه خصيصا لهذا العمل:

«وقد قمت بمراجعة ترقيم الآيات في هذا المصحف ووجدتها تختلف عن أرقام الآيات في نص المصحف المتداول بيننا الآن، ذلك أن المصحف الذي اعتمد عليه فلوجل يضع رقم الآية قبل بدايتها وليس بعد نهايتها، وهذه ملاحظة شكلية، وبالنسبة لعدد الآيات وهذه هو المهم يلاحظ أن عدد الآيات داخل السورة الواحدة يتفق مع العدد المعروف في المصحف العثماني الشائع بيننا حاليا، ومع ذلك فإن المصحف الذ اعتمد عليه فلوجل يختلف في تحديد بداية ونهاية الآيات في السور الطويلة فمثلا في السورة رقم ٢ (سورة البقرة)، يعد ألم جزءا من الآية بعدها وهي في مصحف عثمان – الطبعة المتداولة بيننا– آية بذاتها والآية في المصحف الذي اعتمد عليه فلوجل هكذا: «(١) ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين».

والآيتان ١٩ و٢٠ في المصحف المتداول بيننا وهما: «يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير»، «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون».

هاتان الآيتان هما في المصحف الذي طبعه فلوجل آية واحدة يسبقها رقم (١٨) وفي مقارنة بسيطة نعطي بعض النماذج المعتمدة على أرقام الآيات فقط:

المصحف الذي اعتمد عليه فلوجل رقم الآية	المصحف العثماني الشائع بيننا ما يقابلها
٣٨	٤٠، ٤١
٦١	٦٤، ٦٥
٦٣	٦٧، ٦٨
٧٣	٧٨، ٧٩
١٣٧، ١٣٨	١٤٣

وفي مقابلة الرقم الأخير نلاحظ أن المصحف المشار إليه قد قسم الآية الواحدة إلى آيتين عند مكان الوقف الجائز مع كون الوقف أولى، وذلك عند كلمة «شهيدا».

ونص الآية الكريمة «**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم أن الله بالناس لرءوف رحيم**».

والملاحظة العامة والهامة أن عدد الآيات راجع كما ينقص في هذا المصحف الذي طبعه فلوجل يزيد أيضا. وهذا التحديد لبداية ونهاية الآيات لما أشار إليه السيوطي في كتابه الإتقان في في علوم القرآن[٣١] حيث يقول: «وقال ابن عربي... قال: وتعديد الآي من معضلات القرآن، ومن آياته طويل وقصير، ومنه ما ينتهي إلى تمام الكلام ومنه ما يكون في أثنائه».

وقال غيره سبب اختلاف السلف في عد الآي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف فإذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع أنها ليست فاصلة. وقد أخرج ابن الضريس من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس قال جميع آي القرآن ستة آلاف آية ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك فمنهم من لم يزد ومنهم مقال ومائتا آية وأربع آيات، وقيل وأربع عشرة، وقيل تسع وعشرين وقيل وخمس وعشرون، وقيل وست وثلاثون.

والذي يهمنا التنبيه إليه بعد نقل هذا النص أن نؤكّد أن النص القرآني بحروفه وكلماته ثابت بالتنزيل وأن الآية الواحدة منه إنّما تعلم بتوقيف من الشارع كمعرفة السورة تماما. وواضح من النص السابق أن مرجع الخلاف في عدد الآيات فهم سمع تلاوة النبي صلى الله عليه وسلّم من غير كتاب الوحي

([31]) راجع من هذا الكتاب النوع التاسع عشر في عدد سوره وآياته وكلماته وحروفه في الفصل الأول الذي عقده للحديث عن الآي.

وأهل الثقة من الحفاظ والصحابة -فمنهم من حسب نهاية الوقف نهاية للآيـة، لكن الذين أثبتوا نص القرآن من كتبة الوحي وحفاظ القرآن أجمعـوا علـى أن نص القرآن من كتبة الوحي وحفاظ القرآن أجمعوا على أن النص الـذي بـين أيدينا، حيث وصل إلينا صحيح موثّق متواتر.

والواضح أن نص المصحف الذي اعتمد عليه فلوجل يرجع عد الآيات فيه إلى علم غير وثيق كما يقول الأستاذ محمد فؤاد في مقدمة معجمه: «ولما كـان صاحب نجوم الفرقان إنما اعتمد في أرقامه التي يسوقها أمام اللفظة لدلالة على رقم الآية من السورة على مصحفه الذي طبعه خصيصا لهذا العمل، ولما كـان قد عد آياته غير مستند في ذلك إلى علم وثيق فقد اختلاط عظيم في ألوف مـن العناء المواضع بين مصحفه ومصحف الحكومة المصرية... ولقد لقيت العنـاء المعنى، والنصب المنصب قي رد رقم آيات مصحف فلوجل إلى رقـم آيـات مصحف الحكومة المصرية.

ويبدو لي أن هناك جملة احتمالات فيما يتصل بتقسيم الآيات في المصحف الذي طبعه فلوجل:

الأول: أن فلوجل اعتمد على نسخة مخطوطة للمصحف كان مـن بـاب المصادفة أنها ليست من الرسم العثماني الشائع بيننا برواية حفص والذي تواتر في رسمه والتزانه بتحديد بدايات ونهايات الآيات على تحقيفي متةاتر. وتكـون النسخة التي اعتمد عليها فلوجل أقل وثاقة في مسألة تحديد البداية والنهاية لكل آية.

هذا مع التسليم بأن النص القرآني بها صحيح لم يمس بشيء من التحريف في غير تحديد الآيات.

الثاني: ربما يكون فلوجل هو الذي فهم هذا التقسيم للآيات نتيجة لالتبـاس علامات البداية والنهاية -الخاصة بكل آية- بعلامات الوقف والوصـل نتيجـة

لظروف إملائية تساعد طبيعتها على الوقوع في التشابه لاسيما لغير كاتبها، فما الظن إذا لم يكن معاصرا؟! أو لم يكن من أصحاب اللغة؟! ولم يكن فلوجل مهما أوتي من علم، على معرفة بعلم التجويد والقراءات وهو علم لا يتقنه حتى اليوم إلا قلة من المتخصصين فيه تخصيصا دقيقا.

الثالث: ربما يكون المصحف الذي اعتمد عليه غير مرقوم بعلامات لأن الحفاظ ما كانوا بحاجة إلى كثرة العلامات الدالة على الوقف أو نهاية الآيات – أقول ربما– وهنا تصح عبارة الأستاذ محمد فؤاد عندما قال فلوجل: «ولما كان قد عد آياته غير مستند في ذلك إلى علم وثيق فقد وقع اختلاف عظيم في ألوف من المواضع بين مصحفه ومصحف الحكومة المصرية...».

على أية حال فقد اعتمد فلوجل عند تصنيفه لكتاب نجوم الفرقان على نسخة المصحف المشار إليه، ولذا فإنه من الصعب الانتفاع بكتاب نجوم الفرقان لأن أرقام الآيات به مختلفا كما أوضحنا.

والذي يهمنا الآن أن نوضح هنا أن هذا الكتاب كشاف أو فهرس للألفاظ أو المفردات الواردة في القرآن الكريم مرتبة على حروف المعجم، والمؤلف كان يورد المادة ومشتقاتها من الفعل والأسماء وتراكيبها، ويعدد أيضا مواضع الحرف مثل «ثم»، «أن» ويشير إلى مكان كل لفظة بوضع أرقام السور والآيات على نحو متمايز في الحجم واللون.

ونظرا لصعوبة الانتفاع –بل تعذره أحيانا– بكتاب نجوم الفرقان في غيبة المصحف الذي صنف الكتاب على أسس عد الآي فيه، فإن المرحوم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي نهض إلى تلافي ذلك فصنّف كتابه المسمى «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» معتمدا في تصنيفه على ترقيم الآيات في المصحف الشائع بيننا –وهو الرسم العثماني برواية حفص– وفي الوقت نفسه ذكر بعد كل لفظة جزءا من نص الآية يسهل مهمة كبيرة على الباحث لأنه

يستطيع دون مراجعات متعددة الوصول إلى الآية المطلوبة إذا كان يريدها لذاتها، ولكن من الإنصاف أن نذكر هنا أن الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي استفاد من جهود فلوجل وجعلها أساسا لمعجمه كما يقول هو نفسه في مقدمته مشيرا إلى نجوم الفرقان «فقد اعتضدت به وجعلته أساسا لمعجمي».

وتبقى بعد ذلك ميزة لفلوجل في معجمه نجوم الفرقان، هي أنّه رصد مواضع الحروف داخل النص القرآني، وهو عمل هام لمن يريد القيام ببحث معاني الحروف أو دراسة أوجه استعمالها، وهو غير موجود في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

ثانيا: الفهرست لابن النديم، وكشف الظنون لحاجي خليفة

أما كتاب الفهرست فقد شرع مؤلفه الأصلي في تصنيفه سنة ٣٧٧هـ وظل على المخطوطات حتى تم نشره بفضل جهود «فلوجل» التي بذلها طوال خمسة وعشرين عاما يجمع فيها مخطوطات هذا الكتاب من مكتبات فيينا، وباريس، ولندن ولكنه توفي عام ١٨٧٠، وتولى زميلاه «رويديجر» و«أوجست موللر» هذا الجهد بالاتمام ونشراه سنة ١٨٧١، ثم ألحقاه به نيلا في ٢٧٩ صفحة تضمن التفاسير والتعليقات والاستدراكات بالعربية، والألمانية وختماه بفهارس الأعلام سنة ١٨٧٢ ط ليبزيج.... وبمراجعة النسخة المصورة بالأوفست عن هذه الطبعة المكتملة نجد أن الكتاب يشتمل على قسمين:

١- القسم العربي وهو ما صنّفه ابن النديم، وقام بجمع مخطوطاته وتحقيقها «فلوجل».
٢- القسم الثاني وهو مجهود فلوجل الذي أتمه صاحباه في عام واحد بعد موته ويتمثّل في تعليقات باللغة الألمانية وإثبات لفروق النسخ المخطوطة التي اعتمد عليها وإشارات إلى المصادر التي استشيرت في

توفيق النصوص والأخبار، ثم بعد ذلك كشاف للمؤلفين العرب، وكشّاف للأعلام الأوربية التي ورد ذكرها في النص العربي والتي أشار إليها القسم الثاني من التعليقات، ثم كشاف للأعلام العربية من غير المؤلفين ثم فهرس لمقالات الكتاب وفنونه.

ويلاحظ أن الكتاب طبع القاهرة سنة ١٩٣٠ في المطبعة التجارية، وقد اكتفت هذه المطبعة بنشر القسم الأول وهو النص العربي من طبعة ليبزيج دون الاستفادة من القسم الثاني الذي به التعليقات والفهارس. ولم تقدم الطب المصرية كشافا بأسماء الأعلام، ذلك أن هذا النظام في إخراج الكتب العربية لم يكن مألوفا عند الناشرين آنذاك، وكل فائدة الطبعة المصرية تنحصر في تقديم النص الذي حققه فلوجل، وهو عمل يفيد القارئ العربي الذي لم يكن يمكنه في ذلك الوقت العثور على نسخة من طبعة ليبزيج. وأخيرا صورت النسخة بأكملها بطريقة الأوفست في بيروت وهي متوافرة لدى كثير من الباحثين وفي دار الكتب المصرية.

وفي مجال تصنيف المؤلفين والمؤلفات قدم فلوجل مجهودا آخر هو كتاب كشف الظنون لمؤلفه التركي، «حاجي خليفة» فقد حقق هذا المستشرق النص العربي بعد أن جمع ما تيسر له من مخطوطاته ونشره مع ترجمة له باللغة اللاتينية وجعل كل صفحة مقسمة إلى قسمين النص العربي أعلى الصفحة والترجمة اللاتينية أسفلها لتسهيل مهمة القارئ الأوربي الذي يعرف العربية، ولم يفرد فلوجل أرقاما للشروح والحواشي بل اعتبرها تابعة للكتاب الأصلي.

وهكذا نجد من مجرد الإشارات الموجزة إلى جهود فلوجل في عمومها وإلى شيء من التفاصيل الخاصة ببعضها –أن العلامة فلوجل واحد من المستشرقين الذين خدموا تراث العربية وتراث الفكر الإنساني.

وإنا لنرجو أن يتسع الحاضر والمستقبل لظهور مثل هذه الجهود الصـــادقة المخلصة من علماء الشرق والغرب في خدمة التراث الإنساني مهما تباعدت به الأزمنة والأمكنة وتغيرت به الأزياء والأشكال. وإن التاريخ العربـــي ليحـــتفظ لجهود المستشرقين المخلصين بصفحات من الإعزاز والتكريم يحتل فلوجل منها مكانا متميزا مشرفا.

ملحق ٢: كارل بروكلمان صاحب تاريخ «الآداب العربية» و«الشعوب الإسلامية»

للمستشرقين الألمان مكانة مرقومة بين سائر المستشرقين، لا لوفرة انتاجهم أو دقة بحوثهم، وإنما لتحرر دراساتهم من نزعة التعصب التي لازمت أغلب المستشرقين في سائر الدول الأخرى ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى بعد الشعب الألماني عن معارك السيطرة والغزو والاستعمار حتى أواخر القرن الماضي وعدم استغلال جهود بعض المستشرقين وتوجيهها إلى أهداف استعمارية.

الاستشراق والاستعمار

ويتصل بتاريخنا الحديث مثل صارخ هو ما قام به المستشرق الإنجليزي «بالمر» الذي أرسلته جمعية «استكشاف فلسطين» ليقوم بدراسة عن صحراء سيناء وفلسطين. وقد أدى بالمر تلك المهمة بما أرضى اليهود الذين أناطوه بإتمامها ولعل تلك الدراسة كانت تمهيدا لقيام دولة يهودية في فلسطين.

وقد استغلّ الإنجليز هذا المستشرق في عام ١٨٨٢ عندما أوفدوه إلى مصر خلال الثورة العرابية ليقوم بتأليب وإثارة البدو المقيمين في سيناء على مصر برشوتهم بالجنيهات الذهبية. مما أطمع بعضهم فيه فقتلوه.

مكانة بروكلمان بين المستشرقين الألمان

وعلى الرغم من أن حركة الاستشراق في ألمانيا بدأت بشكل جدي في القرن السابع عشر إلا أنها ازدهرت في القرن التاسع عشر حتى أصبحت للغات

الشرقية كرسي في كل جامعة ألمانية تقريبا، كما أسست جمعية المستشرقين الألمان خلال سنة ١٨٤٤، وعلى الرغم من كثرة عدد المستشرقين الألمان فإن المستشرق كارل بروكلمان يأتي في مقدمتهم بسبب إخلاصه للعلم وتجرده من نوازع العصبية القومية والدينية.

نشأة بروكلمان ودراسته

نشأ بروكلمان في بروسيا الشرقية التي هي معقل الجنس البروسي الذي يرجع إليه الفضل في تشييد ألمانيا في كل ميدان على وجه التقريب، والذي ينتسب إليه بسمارك وكانط وغيرهما.

وقد ولد بروكلمان في ١٧ سبتمبر ١٨٦٨ في بلدة روستك الألمانية التي تطل على خليج كوبك في الجنوب الغربي للبحر البلطي والتي تقع بمقاطعة مكلنبرج شمال ألمانيا.

وكانت أسرته، أسرة كريمة اشتهرت بالتجارة ولحسن حظه كانت أمه على قدر غير يسير من الثقافة ولذلك اهتمت على إيقافه منذ صغره على كنوز الأدب الألماني.

وبعد أن أتم دراساته الابتدائية وبدأ المرحلة الثانوية، أقبل على دراسة اللغات وقراءة كتب الرحلات والكشوف الأثرية واهتم باللغة العبرية والآرامية والسريانية، ثم التحق بجامعة روستك عام ١٨٨٦ وفيها درس علوم الاستشراق، فضلا عن التاريخ القديم واللغتين اليونانية واللاتينية، كما درس العبرية والحبشية وقواعد اللغات السامية المقارنة.

ثم انتقل إلى جامعة برسلاو لمتابعة تلك الدراسات.

وفي عام ١٨٨٨ التحق بجامعة «ستراسبورج»، حيث درس على المستشرق الكبير نولدكه اللغتين السنسكريتية والأرمينية وقواعد اللغة الهندية الجرمانية المقارنة إلى جانب اللغات السامية.

واهتم كذلك بدراسة اللغات المصرية القديمة واشترك في دراسة النقوش القديمة مع بعض الخبراء، كما درس الفارسية والقبطية.

وأخيرا نال إجازة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة «ستراسبورج» سنة ١٨٩١ وبعدها وبعدها عين أستاذا مساعدا في «برسلاو» سنة ١٩٠٠ ثم أقـــام في عام ١٩٠٣ بلتدريس في قسم اللغات الشرقية بجامعة «كونجزبرج» وفـــي عام ١٩١٠ انتقل إلى جامعة «هالة» (شمال غربي ليبزج) غير أنه عاد إلـــى جامعة برسلاو ثانية عام ١٩٢٣. وأخيرا استقر به المقام في جامعة هالة حيث انكبّ على التدريس والبحث والتأليف حتى وافته المنية في ٦ ماي عام ١٩٥٦ في مدينة هالة وهو في السابعة والثمانين من عمره.

جولاته في العالم الإسلامي

وقد قام بروكلمان بزيارة المدن الإسلامية ثلاث مرات:

١- الآستانة (التي تسمى الآن استانبول) وكانت اعاصمة الدولة العثمانيـــة وقتئذ، وذلك في شتاء عام ١٨٩٥-١٨٩٦ موفدا من أكاديمية العلـــوم ببرلين لكي ينقل مخطوط «الطبقات» الذي ألفه «ابن سعد».

٢- الجزائر في ربيع ١٩٠٥ وذلك بصفته مندوبا في مؤتمر المستشـــرقين الدولي. وقد انتهز تلك الفرصة وقام بجولة في الجزائر ووصل خلالها حتى واحة بسكرة التي تقع جنوب مدينة قسنطينة.

٣- الآستانة مرة ثانية عام ١٩٢٩ واهتم في تلك الزيارة بـــالاطلاع علـــى كثير من المخطوطات التي تزخر بها تلك المدينة.

ميزاته على غيره من المستشرقين

وقد امتاز بروكلمان على عدد كبير من المستشرقين بذاكرته القوية وبديهته الحاضرة فضلا عن الفكر اللماح وسرعة الخاطر ولذلك كان من اليسير عليه أن يتذكر الأسماء والأشياء التي يقرأ عنها أو يسمع بها.

وقد مكّنت له تلك الميزات من أن يبحث ويدرس ثم يؤلف تلك الأعمال الخالدة التي تشهد بنبوغه وعبقريته.

آثاره

ويمكن تقسيم آثار بروكلمان إلى ثلاثة أقسام:

أولا: دراسات عربية وإسلامية وتضم هذه الدراسات نحو أربعين بحثا أولها:

«العلاقة بين كتاب الكامل لابن الأثير وكتاب أخبار الرسل والمماليك للطبري» وهذه الدراسة هي رسالة الدكتوراه التي نقدم بها لجامعة ستراسبورج، ويلي تلك الدراسة بحوث عدة، تناول فيها تحقيق بعض الكتب العربية وتصحيحها ومنها كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة و«أنساب الأشراف» للبلاذري و«طوق الحمامة» لابن حزم، كما تعرّض لدراسة لبيد الشاعر وابن المقفع وغيرهما.

ثانيا: دراسات في اللغات السامية

وقد تناولت تلك الدراسات بحوثا في علم الأصوات للغات الأشورية والعبرية وقواعد هذه اللغات ولغات أخرى غيرها. كما وضع معجما للغة السريانية ويبحث الاشتقاق في اللغة المصرية، هذا عدا ملاحظات متفرقة في اللغات واللهجات الحبشية والكنعانية والآرامية وتاريخ بعضها.

ثالثا: دراسات في اللغات والفنون الأخرى

ومن هذه الدراسات دراسة في اللغة العثمانية القديمة واللغة التركية، ثم الشعر العامي والأمثال والقصص القيدمة في تركستان.

وقد نشر أغلب هذه الدراسات في أمهات المجلات والدوريات العلمية في ألمانيا وغيرها، كما صدر بعضها في كتب، أهمها كتاب «تاريخ الآداب العربية» وكتاب «تاريخ الشعوب الإسلامية».

تاريخ الآداب العربية

وهذا الكتاب يتوج جميع مؤلفات وبحوث بروكلمان، وهو الكتاب الذي أثبت دون شك أن صاحبه كان عالما متضلعا في اللغة العربية وآدابها.

وفي ذلك الكتاب كان اتجاهه أن يكون التاريخ الذي يكتبه مقصورا على دراسة التاريخ السطحي للأدب العربي، أي أن يكون ما يكتبه وصفا خارجيا لا تحليلا داخليا، فإذا تناول شاعرا أو كاتبا لم يحاول الوقوف على اتجاهه وآرائه، بل يثبت مراحل حياته في سطور وتواريخ، وإذا تحدث أعمال ذلك الشاعر أو الكاتب ذكرها جميعا وتناولها بالوصف دون نقدها أو بغير التعرض إلى طبيعة ما يقوله ذلك الشاعر في قصيدته أو هذا الكاتب في كتابه.

ويرجع ذلك إلى اعتقاده أنه من المستحيل إدراك كنه التطور الداخلي للأدب العربي إلا في مناطق محدودة وضيقة.

يضاف إلى ذلك أنه ضرب صفحا عن الكتب التي وردها ذكرها في الكتب الموجودة ولم يعتمد في بحثه إلا على التراث الأدبي الذي بقى لنا، متجاهلا المؤلفات والأعمال التي لا نعلم بها إلا من سير الأشخاص وضروب الاقتباس، ذلك لأن أصحاب التراجم نسبوا لكثير من المؤلفين كتبا ضاع أغلبها، كما أن بعض هذه المؤلفات ليس إلا فصولا من كتب موجودة لنفس المؤلف، وغني عن الذكر أنه لا يمكن التحقق من ذلك إلا إذا درسنا كل كاتب على حدة، وهذا جهد

عسير لا يمكن تحقيقه على يد رجل واحد. ولذلك فإنـــه، فيمـــا عـــدا شـــعراء الجاهلية، لم يهتم إلا بما خلفه الكتاب المسلمون.

ولكي نقدر الجهد الضخم الذي قام به بروكلمان، يجب أن نذكر دائما:

١- إن الكتب العربية التي اعتمد عليها بروكلمان، عندما شرع في كتابـــة «تاريخ الآداب العربية» كان أغلبها يومئذ لا يزال مخطوطا، أي يطبع بعد، إذا استثنينا ما طبع في مصر في مطبعة بولاق (المطبعة الأميرية) أو في مطبعة الجوائب بالآستانة وذلك العدد القليل الذي طبع حتى ذلك العهد لا يخلو من أخطاء مطبعية، حتى القرآن الكريم كانوا يخطئـــون في تصحيح تجارب طباعته.

٢- أن بروكلمان عندما شرع يؤرخ للأدب العربي، كان عالم المطبوعات والمؤلفات خاليا من أي تاريخ لذلك الأدب، إذ لم يحاول أي عربي حتى سنة ١٨٩٠ أن يؤرخ للأدب العربي لأن كتب القدامى لما تراجم للأدباء والشعراء وأما إحصاء للمؤلفات وإما تقسيم للشـــعراء والكتـــاب إلـــى طبقات أو كتب لا تضم غير مقتطفات... إلخ.

خطة الكتاب وأقسامه

من ذلك يتضح أن بروكلمان عندما وضع مخططا لكتابه، كان في الواقـــع يبتكر أمرا جديدا، وكان ما ابتكره وتصوره لتـــاريخ الأدب العربـــي منهاجـــا واساسا لكلّ من كتبوا عن هذا التاريخ سواء من العرب والافرنج.

وقد قسم بروكلمان كتابه إلى عصرين كبيرين ثم قسم كل عصر إلى أقسام:

أولا: أدب الأمة العربية منذ بدايته حتى سقوط الدولة الأمويـــة عـــام ١٣٢ هـــ/٧٥٠ م وقسم هذا العصر إلى ثلاثة أقسام:

١- الأدب العربي الجاهلي

٢- عصر الرسول صلى الله عليه وسلّم والخلفاء الراشدين

٣- عصر الأمويين

ثانيا: عصور الأدب الإسلامي غماي ١٣٢هـ/٧٥٠م إلى ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وقد قسمها إلى ما يلي:

١- عصر ازدهار الأدب الأول في عهد العباسيين في العراق من ١٣٢هـ/٧٥٠م إلى ٣٩١هـ/١٠٠٠م.

٢- عصر الازدهار الثاني من ٣٩١هـ/١٠٠٠م إلى سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

٣- عصور سيادة المغول والترك حتى الفتح العثماني لمصر ٩٣٢هـ/١٥١٧م.

٤- العصر التركي حتى منتصف القرن التاسع عشر.

٥- أدب النهضة والعصر الحديث.

ويجري بروكلمان على البدء بكلمة عامة عن العصر الذي يتحدث عنه، مع ذكر الخصائص الأساسية له، ثم يتناول الفروع فرعا فرعا مع التقديم لها بدراسة مختصرة، بادئا بعلوم القرآن والحديث ومنتهيا بالموسوعات وفنون التسلية، ويلي ذلك المؤلفون والشعراء، مع ترجمة موجزة لحياة كل منهم، يلحقها بجميع مؤلفاته سواء أكانت مطبوعة أم مخطوطة، ومع بيان سنة الطبع والناشر مكان النشر ثم أماكن وجود كل مخطوط ورد ذكره.

وقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في جزءين سنتي ١٨٩٧، ١٩٠٢، ولكن مستشرقا ألمانيا آخر هو «جورج ياكوب» نقده ناقدا جارحا، متهما الكتاب بالنقص مما دفع بروكلمان كتله مراجعة دقيقة مستكملا ما فاته، مصححا ما وقع فيه من أخطاء، وقد صدر هذا الكتاب في طبعة ثانية بين عام ١٩٣٨،

١٩٤٢ في جزءين، أضاف إليهما جزءا ثالثا أرّخ فيه للأدب الحديث بين عامي ١٨٨٢-١٩٣٩.

وفي هذا الجزء غيّر منهجه إلى حد كبير، فتناول الكثيرين ممن كتب عنهم بتحليل أعمالهم وبيان اتجاهاتهم وآرائهم، دون أن يكتفي بما قرأ من كتب ومراجع، بل كان على اتصال مستمر عن طريق المكاتبة بعدد كبير من رجال الفكر البارزين في مصر وسوريا، وممن نوه عنهم في هذا الجزء الثالث الأساتذة طه حسين والعقاد ومحمود تيمور وبشر فارس وحسن كامل الصيرفي وسامي الكيّالي وغيرهم.

وقد اهتمّت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية وعندما اتصل به المغفورة له الدكتور طه حسين لهذا الغرض رحّب بالفكرة.

وقد قام المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار بجزء كبير من الترجمة.

تاريخ الشعوب الإسلامية

وفي كتاب «تاريخ الشعوب الإسلامية»، تتبع بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية واهتم اهتماما بالغا يتتبع كفاح العرب في سبيل حريتهم وتقدمهم. وقد أصدره عام ١٩٣٩، لكي يعرف قومه وغيرهم تاريخ العرب منذ عصر النبي صلى الله عليه وسلّم، حتى عقت صدور هذا الكتاب، وقد ترجم ذلك الكتاب إلى اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والبولونية والتركية وغيرها مما أثبت أنه سد فراغا كبيرا في نطاق الثقافة العالمية وأشبع الحاجة الملحة للوقوف على تاريخ المسلمين.

وقد اتسم ذلك الكتاب بغزارة البحث والدقة العلمية والإدراك العميق لمشاكل ومصالح الشعوب والدول التي تناولها في كتابه، كما يعتبر مساهمة صادقة قيمة

منه لرفع مستوى الفهم لدى الأوساط العديدة والدوائر الواسعة للنضـــال الـــذي قامتبه الشعوب الإسلامية في سبيل المساواة والاستقلال. وقد استعان بروكلمان في تأليف هذا الكتاب بكتابات على من سبقوه أمثال مللر، فلهـــاوزن، بيكـــر، ميتز، كريمر وعن الأخير أخذ فكرته في تقسيم التاريخ الإسلامي إلى عصـــور كما استعان بكل المصادر العربية القديمة ومن بينها ابن خلكان وغيره.

والكتاب في خمسة أجزاء وقد ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩١٠ ثم أعيـــد طبعه مرة ثانية سنة ١٩٤٣.

تكريمه في حياته وبعد مماته:

وقد تهافتت المحافل الغربية والشرقية على الثناء عليه والحفاوة به فـــاختير عضو شرف في أغلبها وكان خير ما توج به من تكريم هـــو منحـــه الجـــائزة الألمانية الوطنية وبذلك ارتفع إلى علماء الصف الأول.

وفي أواخر عام ١٩٧٨ أقامت الجمهورية ألمانيا الديمقراطية من الفترة ما بين ١٧، ٢٠ من سبتمبر احتفالات بمناسبة الذكرى المئوية لميلاده وشارك فيها بعض الباحثين العرب.

وأخيرا ليس آخرا فلعل أكبر فضل بلروكلمان على اللغة العربيـــة هـــو أن الاتجاه في أوربا وأمريكا كان اعتبار أن اللغة الغربيـــة لغـــة ســـامية ميتـــة، كالعبرانية والسريانية فلما صدر كتابه «تاريخ الآداب العربية» أصبحت اللغـــة العربية تدرس في أقسام اللغات الحية.

الملحق٣: أسين بلاثيوس «دفاع عن الفلسفة الإسلامية»

وراء الاستشراق الأوربي على امتداد تاريخه، الاستعمار أو التبشير، أو هما معا... وكان المستشرقون -في عامتهم- خليطا عجيبا من المستكشفين والمغامرين والجواسيس والمبشرين.

ولكن وذلك أنه لا يعني أنه كان شرا خالصا، فقد كان القائمون عليه أسبق منا يقظة، وأوسع تجربة، وأطول باعا في مناهج البحث، فكانوا الرواد في اكتشاف كنوز الثقافة العربية الإسلامية. وإليهم يرجع الفضل في تعبيد الطريق إليها، وعرفنا بينهم علماء أجلاء، ولا علينا بعد ذلك ما يريدون، فلتكن لهم إرادتهم، وليكن لنا أن نفيد من جهودهم، دون أن نفقد القدرة على التمييز بين ما هو علم لا نختلف عليه ومنهج يجب أن نستخدمه، وما هو هدف قد لا يلتقي عنده اثنان.

تميز الاستشراقي الإسباني الحديث بأنه كان استشراقا قوميا إن صح التعبير، غايته أن يدرس تاريخ إسبانيا نفسها حين كانت لغتها العربية، ودينها الإسلام، على امتداد فترة تجاوز التسعمائة عام.. فليس من غاياته أن يمهد لجيش فاتح، أو يتحسس الطريق إلى ثروات مغمورة، أو يكشف مناطق رخوة في تفكير أبنائنا.

وظلت هذه المدرسة الجليلة تؤدي رسالتها على امتداد قرن كامل، في خشوع التقي وقناعة الزاهد، وبهجة العاشق وأهدت الدراسات الأندلسية في جوانبها المختلفة عددا من العلماء الأجلاء، وتميزت بحوثها بالجدية والموضوعية، وقبل ذلك وفوقه بالحنان الدافئ، لقد كانوا -باختصار- يكتشفون صفحة مجيدة من تاريخهم.

وكان واسطة العقد في هذه المدرسة العظيمة، ذات التقاليد الجليلة: ميجيل آسين بلاثيوس.

ولد ميجيل آسين بلاثيوس في ٥ من يوليو ١٨٧١م، لأسرة تاجرة، متواضعة الدخل، في مدينة سرقسطة، موطن الفيلسوف الأندلسي ابن باجة، ولما نزل كما وصفها الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، من جغرافيي القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، في كتابه «الروض المعطار في خبر الأقطار»: «مدينة ممتدة الأطناب، واسعة الشوارع، حسنة الديار والمساكن، متصلة الجنان والبساتين، عند ملتقى خمسة أنهر، وذات تاريخ متصل».

وقد توفي والده شابا، وترك وراءه ثلاثة أبناء، ميجل أحدهم، وكان الموروث من تجارة أبيهم يكفي لحياة ضيقة، وقد حرصت الأم على تعليم ابنها فأرسلته إلى مدرسة الآباء اليسوعيين في المدينة، وحين انتهى من المدرسة الثانوية رغب أن يدرس الهندسة الصناعية، ولم يكن لها مدرسة عالية في سرقسطة، وأقرب مدرسة منها توجد في برشلونة، ولكن دون قدرة الأسرة أن تواصل تعليمه العالي خارج المدينة التي يقيم فيها، فتخلى عن رغبته، واتجه إلى الدراسات الدينية بهدف أن يصبح راهبا، وخلال دراسته الدينية كان يتردد على كلية الآداب، وفيها التقى بخوليان ريبيرا، مستشرق عظيم، كان المعرفة مخلصة، والخلق النبيل مجسما.

لم يكن خوليان ريبيرا مستشرقا متمكنا من العربية فحسب، أو مجرد عالم متعمق في الدراسات الأندلسية، وإنما كان صاحب نظرية «اسبانية التراث العربي في الأندلس» فكرة ألمت يوما بخاطر أستاذه فرانسيسكو قديرة، وأمضى التلميذ حياته يبشر بها، ويقيم دعائمها، ويجعل منها واقعا: «ليس ثمة فضل في أن يعرف أحدنا اللغة العربية بهجة، فهناك ملايين الرجال يعرفونها، ويتحدثون

بها خيرا منا، أما الذي نستطيعه دون قدرة الملايين فهو أن نجعل منهـا نـورا نكتشف في هديه أصول الثقافة الإسبانية، ونوضح في ضوئها ما خفـي مـن جوانبها، حين كانت العربية في وطننا لغة الثقافة ولغة الحياة».

لقد جاء ريبيرا إلى سرقسطة عام ١٨٨٧م، ملتهـب الحماسـة، متـوهج الطموح، في أن يبعث الدراسات العربية في هذه المدينة النائية شـمال شـرقي إسبانيا، وكانت حاضرة لها يوما طوال العصر الوسيط..

وبدأ خطاه الأولى نحو الهدف، أن يلتقط النبهاء من بين طلابـه، يرعـاهم ويعدهم لتحمل الرسالة، وكان ميجيل أول من وقعت عليه عيناه.

اكتشف الأستاذ سريعا مواهب طالبه، ووجد الطالب في أستاذه حنانا ودودا، وعطاء سخيا، فلم يفترقا منذ أول لقاء، وكان التلميذ النابه يعيش في دار أستاذه، بين أبنائه، أكثر مما يعيش في بيته، وبدءا معا يقرآن كتبا وصلت قريبـا مـن مصر، لم تكن إسبانيا تعرف عنها شيئا، ولا سمعت بأسمائها منذ أيام الإسـلام المجيدة. ومن بينها مؤلفات الغزالي وابن رشد وابن حزم وابن عربي وآخرين.

وأكمل ميجيل دراسته اللاهوتية، ودراسته في كلية الآداب، وأراد مطـران المدينة أن يعينه خوريا في كنيسة قروية، ولكنه استطاع بعد جهـد أن يعمـل مدرسا لتاريخ الفلسفة في عدد من المعاهد ذات الصبغة الدينية، ولم يستطع، كما كانت رغبته أن يعمل مدرسا للغة العربية، لأن وظائفها كلها مشغولة بشبان من جيله، مما أغلق الباب في وجهه. وبلغت المشكلة أستاذ أستاذه قـديرة، وكـان يشغل كرسي اللغة العربية في جامعة مدريد فطلب أن يحال إلى المعاش قبل أن يبلغ السن القانونية. ليفسح الطريق أمام تلميذ تلميذه النابه. وجاءت التضـحية الثانية من أستاذه ريبيرا، حين قبل على غير العـادة، أن يبقـى فـي جامعـة سرقسطة الإقليمية، وأن يرسل بطالبه الذكي أستاذا للغة العربية فـي الجامعـة

المركزية بالعاصمة، منصب كان أولى به وأحق، ولكنه آثــر أن ينتظــر، وأن يرتقب فرصة أخرى.

وفي ٢٤ من أفريل عام ١٩٠٣ شغل ميجيل آسين بلاثيوس، بعد مســابقة، كرسي اللغة العربية، في كلية الآداب، بالجامعة المركزية في مدريد، ومن قبله شغله أساتذة في قامة جانجونس وقديرة.

عاش بلاثيوس مع قديرة، وشغل داره بعده حين عاد الأخير إلــى مســقط رأسه في مقاطعة آرغون، واثق الخطا، ذكيا، أنيقا، بــين مظــاهر كاردينــال ومصارع ثيران، كما يقول غرسية غمث، بدأ خطاه الأولى متمكنــا، واختــار لنفسه طريقين يكمل أحدهما الآخر، وهما: البحث والتعليم.

بدأ عمله التربوي بتدريس اللغة العربية في الجامعة، وســار علــى هــدى أستاذه من قبل، فكان حريصا على عمله، نموذجيا في سلوكه فلا يتخلّف عــن درسه، دقيقا في موعده فلا يتأخر عن محاضرته، جوادا في علمه فــلا يبخــل بشيء على طلابه، ويتخير النابهين من طلابه فيعطيهم دروســا خاصــة، ثــم يدعوهم إلى بيته، ويفتح لهم مكتبته، ويهاديهم بنسخ من ألف ليلة وليلة. وألّــف لهم في قواعد اللغة العربية مختصرا بسيطا منظما، خير ما ألف يــف بابــه، يدرسه الطلاب في شهرين، وبعدهما يستطيعون أن يترجموا نصوصا من اللغة العربية إلى اللغة الإسبانية، وأن يحللوا هذه النصوص بمساعدة المعاجم، ومــا أصعب النصوص التي كانوا يترجمونها.

وحرص وهو في مدريد على مواصلة بحوثه ونشرها في مجلة «أرغون» التي تصدر في سرقسطة، وكان يقوم على تحريرها كبار المثقفين في المدينــة، وبينهم عدد من المستشرقين، وقد تحوّلت بعد ذلك، لصعوبات مالية، وبإشــارة من بلاثيوس، لتصبح مجلة «الثقافة الإسبانية».

وحين أنشئت مدرسة الدراسات العربية في كل من مدريد وغرناطة، عام ١٩٣٢، أصبح رئيسا لها في مدريد، لأن أستاذه ريبيرا، آثر بعد تقاعده أن يترك العاصمة، وأن ينسحب إلى بساتينه في بلنسية بينما انتهت رياستها في غرناطة إلى غرسية غومث، أنبه تلاميذه وأحبهم إلى قلبه، واحتضنت هذه المدرسة منذ تأسيسها حتى اليوم الدراسات الأندلسية والعربية.

وتظل خيرة المستشرقين من الشيوخ والشباب، وعنها تصدر مجلة «الأندلس» مرتين في العام، وتحظى بتقدير كبير من دوائر الاستشراق والجامعات في العالم، لبحوثها الجادة ودراساتها العميقة.

وقد أختير آسين بلاثيوس عضوا في مجمع اللغة الإسبانية في ١٥ ماي عام ١٩١٠، واختير مديرا له بإجماع الآراء في يونية ١٩٤٣، وكان إلى جانب ذلك عضوا في مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية، وفي مجمع التاريخ، وظلّ يؤدي رسالته كاملة ومرموقة في كل هذه المجالات، إلى أن أحيل إلى التقاعد في عام ١٩٤١، وهو في السبعين من عمره، فانقطع عن عمله التربوي رسميا، وظلّ يواصل بحوثه ودراسته إلى أن توفي في ١٢ من أغسطس عام ١٩٤٤.

فيما بين أول دراسة كتبها بلاثيوس عام ١٨٩٨، وبين آخر يوم فارق فيه الدنيا عام ١٩٤٤، حرر ٢٤٥ مؤلفا، بعضها بحوث مركزة صغيرة الحجم، وبعضها الآخر من أجزاء متعددة، ونشر معظمها في حياته، وقليل منها قام وتغطي هذه البحوث مساحة واسعة، في حقل الدراسات الإنسانية ففيها ما يتّصل باللغة أو التاريخ أو الأدب، وجاء معظمها في الفلسفة الإسلامية بجوانبها المتعددة، توحيدا وزهدا وتصوفا.

بدأ اهتمام آيين بلاثيوس بالفلسفة الإسلامية مبكرا، فقت كانت رسالة الدكتوراه، وتقدم بها عام ١٩٠١، عن: «الغزالي اتجاهاته الصوفية والفكرية»

ويمكن القول أنه استغرق كل جوانب الفلسفة الإسلامية في الأندلس دارسا، وتتبع ما هو مجهول من مخطوطاتها، فدرس فلسفة مواطنه ابن باجة.

وكتب أول دراسة عن «ابن مسرّة ومدرسته»، وما زالت الدراسة الوحيدة حتى يومنا هذا، وترجم كتاب الفصل في الأهواء والملل والنحل لابن حزم، وقدم للترجمة بدراسة موسعة وواعية عن تاريخ مؤلفه، وكتب عن فن المنطق عند ابن طموس، والأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية، وفلسفة ابن رشد، وتصوف ابن عربي، وحقق كتاب «تدبير المتوحد» لابن باجة، «ومحاسن المجالس» لابن العريف، وغيرها.

كان المحور الذي قامت عليه دراساته أن يبين ماذا أعطى الإسلام للفلسفات الأخرى وماذا أخذ عنها، مما يدخل في نطاق تاريخ الفلسفة المقارن، وكان في ذلك موضوعيا بقدر ما تسمح به ظروف رجل دين، تخضع كتاباته دائما لموافقة الكنيسة ورقابتها، في مرحلة لم يكن فيها الفاتيكان قد سادته بعد بأبويه يوحنا الثالث والعشرين.

ولم يكن يتردد عن الدفاع عن الموقف الإسلامي في مواجهة مستشرقين أوربيين آخرين علمانيين، وكان الوحيد الذي وقف في مواجهة المستشرق الهولندي رينهارت دوزي، حين عرض عرض لعفة ابن حزم في حبه، وردها إلى أصول مسيحية.

ففي عام ١٨٦١ نشر دوزي كتابه «تاريخ مسلمي الأندلس» وكان قد قرأ مخطوطة «طوق الحمامة» الوحيدة لابن حزم، وأفاد منها في كتابه، ووقف مذهولا بإزاء اعترافات ابن حزم الغرامية، فنقل قصة حبه في فرنسية راقية، شفافة ومثيرة. فدفع بها إلى كل ركن في أوربا.

وبعد ذلك بما يقارب من ٦٦ عاما ألّف بلاثيوس كتابه عن ابن حزم، فعرض لوجهة نظر دوزي وناقشها وأتى عليها، وختم مناقشته: «لقد تأثر

دوزي بما هو شائع معاد عن حسية الحب عند الجنس العربي أكثر مما تأثر بما هو حق».

وهذه الأفكار المطروقة وليدة دراسات جزئية وسطحية وجانبيـــة لـــلأدب الإسلامي، وهي مضطربة، مثلها في ذلك خرافة لا تقل عنها انتشـــارا، وهـــي عجز الجنس السامي عن الدراسات الفلسفية. لقد كرس الاستشـــراق الأوربـــي أغلب جهده في البدء، بل وحتى كل جهده لدراسة شـــعراء الجاهليـــة، وأدبـــاء الإسلام في العصر الكلاسيكي، وخدع أوائل الباحثين منهم، بما كان يتـــراقص في هذه النماذج من عبادة وثنية المشكل والجمال الحسي، دون أن يكون لـــديهم متسع من الوقت لكي يستوعبوا، أو حتى يبدأوا تحليل المعاني العظيمة لـــلأدب الإسلامي، وما زال مطويا لما ينشر أو يدرس، ومع ذلـــك جـــرءوا علـــى أن يستخرجوا من المقدمات الناقصة والخادعة نتائج عامة وفجة، وأن يرتفعوا بها إلى مرتبة القانون التاريخي أو الاجتماعي.

ولكن خلال قرن مضى (كتب بلاثيوس كتابه عن ابن حـــزم بـــين عـــامي ١٩٢٦ و١٩٣٢) حلل جوانب عديدة للنفسية العربية، ومن الممكن الآن تكوين فكرة أكثر شمولا ودقة عن ذي قبل.[٣٢]

وكان رامون لل (١٢٣٥-١٣١٥) الرهب المتصوف أعظـــم، وربمـــا أول فيلسوف إسباني في العصر الوسيط، وقد أثبت بلاثيوس، ومـــن قبلـــه أســـتاذه ريبيرا، أن رامون عرف عددا كبيرا من صوفية المسلمين كابن سبعين، وابـــن هود، والششتري، وأبي مدين، والعفيف التلمساني، وغيـــرهم كثيـــرين، أمـــا الصوفي الذي تعلق به رامون لل تعلقا شديدا فهو محيي الدين بن عربي.

---

[32] لمعرفة المزيد عن هذه القضية المثيرة يمكن الرجوع إلى كتابنا «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة»، والطبعة الجديدة لكتاب طوق الحمامة لابن حزم بتجقيقنا، فقد أوردت النصوص كاملة ومضبوطة دون أي حذف، ونشرته دار المعارف بالقاهرة.

وقد تتبع بلاثيوس مظاهر التشابه بينهما، ووضع يده على نقاط اللقـاء، أو الأخذ إذا شئنا الدقة، ووجد أنهما يلتقيان في التعاليم الأساسية لمذهبهما، فـالعلم عند كليهما واحد، وهدفه البحث عن «الواحد» والعلوم تدرك عن طريق الإيمان أو عن طريق العقل، وعندما يعجز التفكير النظري نع الوصول إلـى كنههـا يكشف الله عن كنوزها لعباده عن طريق الإشراق، إذ أن كثيرا مـن الأشـياء «إنما توجد في الناحية الأخرى من جيل المعرفة الإنسانية، كما قال بـروكلس وأفلاطون من قبله.

ووجد التشابه بين كتابات الرجلين حرفيا في بعض الأحيان، ومـن ذلـك قولهما «بالنورين» واستعمالهما تعبير «الـذوق المـريض» وكلامهمـا عـن «الفضائل الخفية لأسماء الله» وقول للبنظرية «المقامات» وهي ترجمة حرفية للفظ «الحضرة» الذي يستعمله ابن عربي وهو يتحدّث عن أسـماء الله المائـة مقلدا ما كان يجده في كتب المسلمين، ولرقم مائة معنى صـوفي فهـو الـرقم الأكبر في عرف النساك وتقاليدهم، ويستخدم من مصطلحات ابن عربي ألفـاظ «حضرات» و«الربانية» و«الرحموت» و«العزة» وغيرها.

وعن محيي الدين بن عربي كذلك أخذ لل طريقته في الرمـز بـالحروف للتعبير عن آراء فيما بعد الطبيعة أو مقولات الوجود، وهي طريقة ترجع فـي أصلها إلى أسرار الصوفية ورموزهم، وأخذ عنه كـذلك اسـتعمال الأشـكال الهندسية، لكي يعبر بها عن حقائق ميتافيزيقية وإلهية بصورة ملموسة، وأخـذ عنه أيضا طريقته في رسم الأشجار ليفسر بها وحدة العلم، وتفرع الوجود كله عن أصل واحد، وجعله الأفكار المجردة ذوات مشخصة، وأجراء المحـاورات بينها، ويتفق كتابه «الصديق والمحبوب» في مبدئه الأساسي مع ما ذكره ابـن عربي في كتابه «ترجمان الأشواق».

وكان عدد كبير من الباحثين يرى للأخذ بنظريات الأفلاطونيـة الحديثـة الشائعة بين مذاهب أخرى، وقد رفض بلاثيوس هذا الاتجـاه، وبـرهن علـى تابعيته المباشرة للأصول العربية، «وتوكيدا لهذا وبالإضافة إلى ما أعتدّ به من الحجج المتداولة التي أتى بها أستاذي ريبيرا، وما زالت قويـة متماسـكة لـم تتزعزع، اكتفى بأن ألفت النظر إلى حقيقة إيجابية تؤيدها نصوص من كلام لل نفسه: هي أن لل لم يعرف اللاتينية، وأنه لم يكن غيـر اللغـة القطلونيـة[٣٣] والعربية، فهو لم يأخذ النظريات المميزة للمدرسة الفرنشسـكية عـن الكتـب اللاتينية التي ألفها علماء «المدرسيين» وإنما عن كتب العربيـة التـي ألفهـا الصوفية المسلمون، كابن عربي، والتي نجد فيها هذه النظريات بالنص».

وقد كتب مؤلفه المسمى «كتاب الكافر والعلماء الثلاثة»، وكان واسع الذيوع في العصور الوسطى باللغة العربية أولا، ثم ترجمه بنفسه إلى اللغة القطلونية، وعنها نقل إلى العبرية واللاتينية والفرنسية والاسبانية.

أما كتاب آسين بلاثيوس الذي صنع تاريخا وميزا فكان عـن «الأصـول الإسلامية للكوميديا الإلهية» وقد ألقاه في البدء بحثـا فـي المجمـع الملكـي الإسباني، في جلسة ٢٩ يناير ١٩١٩، ثم نشره في العام نفسه كتابا، وكان لـه دوي هائل في أوربا كلها، فقد رأى «أن مفتاح جانب كبير مما استطاع الناس – وما لم يستطيعوا – تفسيره من المسائل المتعلقة «بالكوميديا الإلهية»، يوجد في الأدب الإسلامي، ففيه أصول بعض ما ذهب المتخصصون فـي دراسـة أدب دانتي إلى أنه أخذه من مفكرين نصارى سابقين عليه في الزمن، وبعـض لـم يجدوا له أصلا فنسبوه إلى عبقرية دانتي وخياله المبدع».

«وصور العذاب متشابهة في جحيم دانتي، وفي جهنم التي يصفها القصاص في أساطير المعراج الإسلامية، ففي القصص الإسلامي نجد ما يقول دانتي من

([33]) القطلونية لغة متفرعة عن اللاتينية، شأنها شأن بقية اللغات اللاتينية الأخرى، وكانت تتحدث –وما زالت– في منطقة قطلونية وجزر البليار.

أنه رآه في «جحيمه»، من أن عواصف هوجا من النارتلفح أهل الزنا، والطبقة الأولى من دار العذاب توصف على النحو نفسه الذي توصف به مدينة «دبت» في القصيدة الإيطالية: محبط من النور تقوم على شواطئه قبور تشتعل فيها لنيران».

وقد أورد بلاثيوس موازنة بين أوصاف هذه الريح كما ذكرها الثعالبي في «كتاب قصص الأنبياء» المسمى بالعرائس، وأوصافها كما أوردها دانتي في الأنشودة الخامسة من الكوميديا الإلهية.

ونجد في «الكوميديا» أيضا أكلة الربا يحاولون عبثا أن يصلوا سباحة إلى شاطئ بحيرة من الدم، لأن هناك حراسا جهنميين يذودونهم عنها، ويدفعونهم إلى الغوص من جديد، وهناك حيات مخيفة في أطباق النار المختلفة، تعذب أهل النهم والأشقياء، والشيء نفسه في القصص الإسلامي، حيث يغص الجحيم بالطواغيت وأكلة أموال اليتامى والمرابين.

ومضى بلاثيوس بموازنته حتى النهاية، وقدم عشرات الأمثلة للأفكار المنقولة، والصور المقتبسة والتخويلات والرموز والأوصاف، ودلل عليها، وأبان أن التشابه لم يكن عرضيا، ولم يجيء من قبيل الصدفة وتوارد الخواطر، وقوبل رأيه بهجوم شديد من مختلف الباحثين، وبخاصة الإيطاليين منهم، وقد عزّ عليهم أن يفجعوا في علمهم الأكبر ومناط فخارهم.

وقام بلاثيوس بالرد على هؤلاء جميعا وأفحمهم، وألحق النقد ورده عليه في الطبعة الثانية من كتابه، وصدرت طبعة ثالثة عام ١٩٦١ ولكنها نفذت أيضا.

الشيء الوحيد الذي كان ينقص آسين بلاثيوس هو الدليل القاطع على وصول هذه الكتب الإسلامية إلى الغرب بلغة يفهمها الأوربيون، وبخاصة إلى فلورنس في القرن الثالث عشر، حيث ولد دانتي وعاش. لقد كانت الحجة الوحيدة التي ساقها للانتقال المباشر تدعم رأيه احتمالا وليس نصا، وهي رحلة

برونتو لاتيني، أستاذ دانتي وصديقه، إلى إسبانيا عـــام ١٢١٠ ســفيرا لبلديــة فلورنس لدى بلاط ألفونسو العاشر، المعروف بالحكيم ملك قشتالة.

غير أن القدر كان يخبئ مفاجأة أخرى في هذه القضــية الأدبيــة، لا تقــل روعة عما اكتشفه بلاثيوس نفسه، وكانت شاهد حق على صواب حدسه وصدق فراسته، فبدد وفاته بخمس سنوات أي في عام ١٩٤٩م، اكتشف باحثان، كـــان كل منهما يعمل مستقلا عن الآخر، أن قصة «المعراج» قد ترجمــت، وقبــل مجيء دانتي إلى الحياة، إلى أكثر من لغة أوربية.

لقد اكتشف الباحث الإيطالي ايزيكو تشرولي، أن ثمة كتابا عربيـــا يحـــوي قصة المعراج أمر ألفونسو العاشر، أو الحكيم ملك قشتالة وحكم من ١٢٥٢ إلى ١٢٨٤ م، شخصا يدعى إبراهيم الحكيم بترجمته من العربيـــة إلـــى القشـــتالية (أصل اللغة الإسبانية المعاصرة)، وأن بونافثورا دا سيينا، وكـــان كاتبـــا فـــي بلاطه، نقله عن هذه الترجمة القشتالية إلى اللغتين اللاتينية والفرنسية، وقد وجد أنريكو ثلاث مخطوطات لهذه الترجمة، واحدة في مكتبة بـــودلي باكســـفورد، والثانية في المكتبة الأهلية بباريس، والثالثة وهي مبتورة الآخر في الفاتيكـــان، واعتمادا على هذه المخطوطات نشر التـــرجمتين اللاتينيـــة والفرنســـية عـــام ١٩٤٩م، وأضاف إليها الشواهد الدالة على أن هذا الكتاب كان رائجا في الآداب الأوربية حتى القرن الخامس عشر، وضم إليهـــا النصـــوص التـــي تتضـــمن معلومات وافرة عن أدب الآخرة الإسلامي في كتب المؤلفين الأوربيـــين مـــن القرن التاسع حتى القرن الرابع عشر الميلادي.

وفي العام نفسه نشر العالم الإسباني خ. منيوث سندينوص الترجمات الثلاث القشتالية واللاتينية والفرنسية. مع مقدمة وتعليقات. لقد دفع الباحـــث الإســـباني بالبحث خطوة أوسع إلى الأمام، حين وضعيدنا على النص القشـــتالي، وكـــان

أصلا للتراجم الأوربية كلها، وقد تمت هذه الترجمات الثلاث عـــام ١٢٦٤، أي قبل ميلاد دانتي بعام.

إن ما ألقى به بلاثيوس فرضا عام ١٩١٩م، ودعمه بشواهد عقلية فحسب، أصبح الآن بعد نشر الترجمات الثلاث حقيقة ثابتة، لم يعد ثمة شك فـــي قالـــه العالم الإسباني الجليل من أن دانتي شاعر إيطاليا الأكبر، قد تأثر إل حد بعيـــد بأدب الآخرة الإسلامي، وأن مؤلفه «الكوميديا الإلهية» تـــدخل فـــي تركيبـــه عناصر إسلامية عديدة.

وفي مجال التصوف درس بلاثيوس ابنعباد الرندي (١٣٢٠-١٣٨٩م) وهو من عظماء متصوفة لأندلس في القرن الرابع عشر الميلادي، ولأن ابن عبـــاد كان شاذليا، فقد وقف العالم الإسباني طويلا عند طريقة الشاذلية، تتبع نشـــأتها وانتشارها وأذكارها ورجالها في دراسة جادة وعميقة ووصف كتاب ابن عباد: «شرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري»، وهو أهم كتبه، بأنـــه «مـــنهج كامل لطريقة زهدية صوفية، عظيم الفائدة للبادئين في الطريق، والذين ســـلكوه وقاربوا منزلة الكمال، والذين وصلوا إلى ذروة غاية النظر الصوفي».

وقد وقع بلاثيوس على نقاط اللقاء بين هذا الصوفي المسلم وبين صـــوفي مسيحي آخر، هو يوحنا الصليبي (١٥٤٢-١٥٩١م)، وكان أيضا شاعرا وزاهدا وصاحب أتباع يطلق عليهم «أهل النور» وأبرز هذه النقاط فكرتـــا «البســـط» و«القبض» وكان أبو الحسن الشاذلي يشبههما بالليل والنهـــار، فأخـــذ يوحنـــا الصليبي ذلك التشبيه وتوسع فيه، واستخدم تعبير «النور» و«الظلام». ولأن ابن عباد الرندي سبق يوحنا الصليبي بمائتي عام فلا شـــك أن الســـابق أثـــر فـــي اللاحق. وصحيح أننا نفاقد الدليل المادي. ولكن بلاثيوس يرى: «أن الطريقـــة الشاذلية كانت، كما كما هي اليوم في مصر وبلاد المغرب، واسعة الانتشار في الأندلس في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ولا بد أنها ظلت عميقة التأثير

والانتشار أيضا بين الذين غلبوا على أمرهم من المسلمين، وظلوا في أسـبانيا بعد سقوط دولة الإسلام في الأندلس عام ١٤٩٢ وعن هـؤلاء تلقـى يوحنـا الصليبي علمه بالطريقة الشاذلية».

لقد أثرى هذا الراهب العالم حياته المديدة، والجليلة، بالانقطاع إلى الفلسـفة الإسلامية، تكمن منها، وتتبع روافدها أخذا وعطاء، خلف وراءه إرثـا وفيـرا وثمينا، وطلابا متميزين، وما أحرانا أن نعنـى بـه، وأن ننقلـه إلـى لغتنـا العربية.[٣٤]

والحديث وجه إلى: الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربيـة. والمجلـس الأعلى للشؤون الإسلامية والأزهر بهيئاته الكثيرة والمتعددة فلعـل فـي هـذه الهيئات من يقرأ، ويعي، ويستجيب.

([34]) أكمل كاتب هذه السطور ترجمة كتابين من تأليف بلاثيوس هما: ابن حزم القرطبي، وابن مسرة ومدرسته، وسوف يدفع بهما إلى النشر، إن وجد الناشر قريبا.

الملحق٤: التراث الإسلامي والمستشرقون

تناول المستشرقون جوانب كثيرة من الفكر الإسلامي بالدراسة، ولا ريب كان التراث الإسلامي هو أبرز ما تناولوه وعالجوه بالبحث والتقصي من دراسات الفكر الإسلامي المتعددة، ونحن نحفظ لهم فضلهم في تبويب التراث وإعداده وفهرسته وتحليله ولكننا حين نتقصى وجهة نظرهم في كثير من القضايا فهي غالبا ما تكون خاضعة لأحد أمور ثلاثة: إما محاولة فهم الإسلام على أنه دين لاهوتي خالص كالمسيحية بينما الإسلام دين ومنهج حياة، وإما أنهم تأثروا بوجهة نظر السياسية الاستعمارية فخضعوا لها وإما أن أدواتهم البيانية والفكرية قصرت عن فهم طبيعة الإسلام والفكر الإسلامي الجامعة التي تربط بين الثابت والمتغير، والروحي والمادي والدنيوي والأخروي، وأغلب ما تجيء أخطاؤهم في العجز عن فهم الوحي والنبوة والتفرقة بين الألوهية والنبوة ولذلك فإن أغلبهم ينسبون القرآن الكريم إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم وبعضهم يعدّ الرسول مصلحا اجتماعيا.

غير أن موقف الاستشراق من التراث الإسلامي ليس موقفا سليما من ناحية الحرص الواضح لدى المستشرقين على الاهتمام بالجوانب الضعيفة والمضطربة من هذا التراث وخاصة جوانب الصراع، وجوانب الخلاف بين الفرق، والاهتمام بالتصوف الفلسفي ومحاولة إبراز الأثر الأجنبي في الفكر الإسلامي نتيجة الاتصال بالفكر اليوناني والتهويل فيه إلى حد القول بأنه أهم معطيات الفكر الإسلامي، غافلين عن أن الفكر الإسلامي قد تشكل أساسا قبل الاتصال بالفكر اليوناني أو الفارسي أو الهندي، وأن العلماء المسلمين حالوا دون سيطرة هذه المترجمات على جوهر الفكر الإسلامي قد تشكّل أساسا قبل الاتصال بالفكر اليوناني أو الفارسي أو الهندي، وإن العلماء المسلمين حالوا

دون سيطرة هذه المترجمات على جوهر الفكر الإسلامي ودورها وحرروا معطيات الإسلام منها ولم تكن تلك الجوانب التي هي موضع اهتمامهم إلا محاولات لاختواء الفكر الإسلامي، لكنها لم تنجح ولم يلبث الفكر الإسلامي أن استعاد أصالته حين تشكل مذهب الجماعة واستصفى كل ما كان وافدا، وأساغ الصالح منه وتخلص مما يتعارض مع مفهوم التوحيد الخالص.

لقد أولى الاستشراق اهتمامه البالغ للتصوف والفلسفة وعلم الكلام والاعتزال والباطنية وكلّ هذه جزئيات من صورة لم تكتمل ولا يجوز لها أن تنفصل على الصورة العامة الكلية للفكر، ولقد علت في مرحلتين من مراحل تاريخ الفكر الإسلامي نوعة الاعتزال ثم نزعة التصوف الفلسفي ولكنهما لم يلبثا أن سقطا وحوصرا وثبت تعارضهما مع جوهر الفكر الإسلامي الجامع الأصيل الذي لم يقبل استعلاء النزعة العقلانية التي جاء بها الاعتزال أو النزعة العقلانية التي جاء بها الاعتزال أو النزعة الإشرافية الحدسية التي جاء بها التصوف الفلسفي، وكل المحاولات التي يثيرها الاستشراق الآن لإعادة بعث هذا الركام وإحيائه تمثلاً هدفا ماكرا من أهداف الاستشراق من ورائه حركة التغريب والغزو الفكري التي تحاول تزييف حقيقة الفكر الإسلامي وجوهره الأصيل.

وفي مجال التراث نجد عناية كبرى بالحلاج الذي وقف المستشرق لويس ماسنيون حياته على جمع آثاره، وبالسهروردي وبشار وأبي نواس وكلها شخصيات موصومة مضطربة لم تكن بالنماذج الكريمة أو العالية في التراث الإسلامي بل إن الاستشراق أولى اهتماما كبيرا بشخصيات هاجمت الإسلام وخاصمت رسوله، كابن الراوندي ومسيلمة الكذاب وقدم عنهما وعن غيرهما دراسات واسعة نشرت باللغة العربية وأن أي مراجعة لدائرة المعارف الإسلامية لتكشف عن هذا الاتجاه الرامي إلى إدخال شبهات الإسلام كمادة

أساسية فيه ونجد هذه المحاولات واضحة في جميع فروع التراث: القــراءات، وكتابة القرآن، وسيرة الرسول، وفي مجال التاريخ ولشريعة الإســلامية وفــي مجال اللغة والأدب.

ويبدو أن جماعة المستشرقين فتشوا كتب التراث الإسلامي القديمــة بغيــة اقتناص الروايات المضطربة والناقصة والمحرفة واستغلوها لإثبات وجهة نظر مسبقة واستعانوا بكتب الأدب والروايات والأسمار وألف ليلة وليلــة وغيرهــا لتكون مصادر لأسانيدهم بينما هذه الكتب لم تكن في الأساس مصادر علميــة للفقه والتاريخ.

«يحرفون الكلم عن مواضعه» وليست دائرة المعارف الإســلامية وحــدها التي توصف بالانحراف بل تجد ذلك في قاموس «المنجد» الذي نجده موضوعا الآن في أيدي الباحثين العرب وهذه شهادة عالم له صلة بدوائر الاستشراق هو الدكتور مصطفى جواد الذي يقول إن أغلاط المنجد لا يمكن لأحد أن يستقصيها وقد نبهنا على ثلاثمائة وأربعة وعشرين منها وأغلب أخطاء المنجد هي محاولة تفسير المصطلحات اللاهوتية الخاصة تفسيرا عربيا عاما.

ولربما كانت الأحداث، لا النصوص أكثر أهمية في الكشف عن الأهــداف: ألف أبو زيد وثيمة بن موسى بن الفرات المتوفى ٢٣٧ هجرية وهــو فارســي الأصل كتابا اسمه كتاب «الردة» وقد ضاع هذا الكتاب وبقيت منه قطع قصار ذكرها ابن حجر في كتابه «الإصابة» وجاء المستشــرق الألمــاني الــدكتور «هونزباخ» من جامعة بون فاستل هذه القطع من كتــاب الإصــابة وفصــلها وضبطها وشرحها وأقامها كتابا تحت اسم الردة الضائع.

وتشمل هذه القطع على تراجم الأشخاص الذين ارتــدوا عــن الإســلام أو دافعوا عنه أيام الردة وقد رتبها المحقق على القبائل فبدأ بأسد وغطفان وفزارة ثم انتقل إلى طي ثم هوازن وعامر بن صعصعة ثم سليم ثم عبس ثم تمــيم ثــم

حنيفة ثم ربيعة، وهكذا سلخ هذه القصاصات والشطائر من كتاب الإصابة ووضع مقدمة، وأمضى في تحقيق النصوص سبع سنوات كاملة، فأي هدف للاستشراق في هذا العمل!

ولقد يقال أن الاستشراق في السنوات الأخيرة قد خفف من حدته وأدخل أساليب وتحرر من الأهواء ولكن المشاهد غير ذلك والدكتور أحمد السمان عميد كلية الحقوق بدمشق وقد اشترك في مؤتمر عام ١٩٦٠ يقول:

«بدأ المستشرقون يلقون محاضراتهم وكانوا كمن يلقى البارود في النار، والحق أنهم لم يخرجوا عن سمت علماء الاستشراق من الأجانب فأهدافهم يوم سلكوا طريق هذا العلم أن أساطير نذهب مذهب الحقائق العلمية لينالوا من الفكر الإسلامي، وكانوا يلقون من العالم أسماعا مصغية علمها الجبن السكوت، والجهل الاستسلام وقد فوجئوا بجيل جديد تعلم علومهم وقرأ مصادرهم، وتفوق عليهم بتفهمه روح العربية وبتجرده من النزعات المهدمة للعلم، وكان يمثل البلاد صفوة من الشباب المسلم المتخرج في كبرى جامعات العالم وكان الصدام عنيفا وكانت الغلبة للحق».

ويذكر الدكتور السمان نماذج من عناوين البحوث:

١. أيتكهاوزن (جامعة ماتشجان) أنه لا يوجد فن إسلامي.
٢. بوسان (جامعة نابلي) أن الشعر الإسلامي شعر فجور وفسق.
٣. جروثيبام تحدث عن ما أسماه المفارقات التي تفصل بين المسلمين.. وقال ما يفرقهم أكثر مما يجمعهم.

ويقول الدكتور عبد الكريم زيان: «من سلم منهم من الهوى وسوء النية أوقعه جهله بمعاني الإسلام بأباطيل وافتراءات، والقليل منهم جدا من سلمت كتاباته من سوء النية والجهل ويجب عدم اتخاذ كتاباتهم مصدرا للمعرفة الإسلامية».

ونحن مستعرضون هنا على وجه السرعة تلك المحاولات ممثلة في أبــرز القائمين بها:

١. مرجليوث: الإسلام

أشار الأستاذ خوجة كمال الدين في كتابه المثل الأعلى في الأنبيــاء إلــى أسلوب الاستشراق: فيقول إليك بيان الطريقة التي دأبوا عليها في نقد الــديانات الأخرى، يشير أحدهم إلى فكرة ما من طرف خفي ويليه آخر فيقرر أن هــذه الفكرة جائزة، ويأتي ثالث فيرفع هذا الحوار إلى مرحلة النظرية حقيقة. وهكذا تتطور الفكرة: أربعة أطوار أو خمسة إلى أن ينتهي بها المطاف إلى أن تصبح حقيقة مقررة، وبخاصة إذا كان الأمر يمس أحد الــديانات أو المــدنيات التــي يتوفرون على نقدها وللأستاذ مرجليوث جولات خاصة في هذا الميدان.

وإليك المثل: «جاء الدكتور فيجانا فقدم قصة فحواها أنه عثر على ترجمــة سريانية للقرآن الكريم سقط منها بعض أجزائه يريد بذلك أن يوهم القارئ أنــه ربما ضاع شيء من القرآن وكان فيجانا هذا قد حاول ذلك أن يشكك في صحة القرآن فباء بالفشل الذريع، فجاء مرجليوث فالتقط الخيط فأشار إلى أن فيجانــا عثر على نسخ سريانية عريقة في القدم وأشار وجود خلافات ذات بــال فــي المخطوطات القديمة، وهذه العراقة في القدم التي أشار إليها مرجليوث لم يمــر عليها إلا أقل من عام، ولكنه يحاول أن يضع في يد الخصم سلاحا يحارب بــه القرآن، هل يليق بمرجليوث أن يستعمل عبارة (عريقة في القدم) مع أن فيجانا نفسه لم يقل ذلك بل يرى خلاف هذا الرأي.

ومرجليوث هو أول من أثار الشك في الشعر الجاهلي، وقد أشار في بحثــه (الذي نقله طه حسين دون أن يشير إليه في كتابه الشعر الجاهلي) إلى أن الشعر الجاهلي الذي يقرأ على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الإسلامية ثم نحه

هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهليين، يقول الدكتور ناصر الدين الأسد الذي ناقش ذلك في كتابه «مصادر الشعر الجاهلي» أن الدكتور طه استسقى أكبر مادة لبحثه من مرجليوث.

ولمرجليوث آراء خصيمة للإسلام والنبي أوردها كتابه محمد وظهور الإسلام عرضنا لها في كتابنا (الإسلام والثقافة العربية) وكلها تدور حول شبهات النقل من اليهود والنصارى، والتفسيرات الباطلة للنصوص وفق مفهومه اليهودي البالغ الكره للإسلام.

٢. جولدسيهر: الشريعة الإسلامية

تخصص هذا المستشرق اليهودي في إثارة الشبهات حول السنة والفقه والشريعة الإسلامية، وفي قيمة الأحاديث النبوية وذلك بالقول بأن السنة بدأ تدوينها بعد وفاة النبي بتسعين عاما، وفي قوله في كتابه: (العقيدة والشريعة) أن التوحيد الإسلامي ينطوي على غموض ومن ذلك قوله: أن الشريعة الإسلامية تأثرت بالقانون الروماني في بداية تكوينها. وقد دحض آراءه كثير من الباحثين في مقدمتهم مصطفى السباعي ومحمد الغزالي وسليمان الندوي.

وجولدسيهر يحاول في مجمل رأيه أن يصور الفقه الإسلامي وكأنه من صنع الصحابة والتابعين وقد كشف الباحثون أن جولدسيهر كان مدفوعا في كتاباته بغرض سياسي خاص هو إظهار أن التشريع الإسلامي قابل للمثرات الغربية.

ولقد صودرت لجولدسيهر مغالطات وانحرافات كثيرة أراد بها المغالطة في الحقائق الأساسية ومنها أنه حرف قول الإمام الزهري: «إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث» إلى لفظ أحاديث وذلك لفتح الباب أمام شبهة كبيرة كذلك فإنه اتهم الزهري بأنه واضع حديث فصل المسجد الأقصى إرضاء

لعبد الملك بن مروان مع أن الزهري لم يلق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزبير.

وقد كشف محمد أسد «ليوبولد فابس» السر في محاربة السنة فقال: إن الهدف هو إسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لحياة رسول الله والمسلمين وبذلك يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لحياة رسول الله والمسلمين وبذلك يفقد الإسلام أكبر عناصر قوته، ويقول لكي يستطيع نقده الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم فإنهم يحاولن أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتناولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاءون على أوجه من التفكير السطحي أي حسب ميول كل واحد منهم وطريقة تفكيره هو، وبذلك تنتهي تلك المنزلة «الممتازة التي للإسلام على أنه نظام خلقي وعملي ونظام شخصي واجتماعي إلى التهافت والاندثار».

٣. لامنس: الإسلام وتاريخه

ويعد هنري لامنس من أشد المستشرقين تعصبا على الفكر الإسلامي، ولقد بالغ في التعصب على الإسلام حتى أعلن البعض شكهم في أمانته العلمية وقالوا: أنه لا ينسى عواطفه في ما يكتب على النبي والإسلام، وأنه كان داعية ولم يكن عالما، وقد عرف بتهكمه على النصوص العربية كما وصف بإرهاقه للنصوص وتحميلها أكثر مما تحتمل. فإذا وجد في الإسلام موضعا للفضل ذهب لنسبته لمصدر غير إسلامي وقد تعصب لامنس للأمويين، ومصدر إعجابه بهم أن دولتهم كانت في تفسيره لا دينية ولأنهم أقاموا ملكهم في الشام وتأثروا بالمدينة القديمة التي قامت في ربوعه.

يقول دكتور زكي محمد حسن: أنه كان خصما عنيدا للمسلمين عامة وللعلويين والعباسيين خاصة وأنه كان يسلب العرب الفضائل والصفات الخلقية

الجميلة، وأنه كان في خصومته يعتمد على السفسطة والمغالطة وقد كتب لامنس عن الإسلام وعن رسول وعن بنات النبي.

وهو في كل هذه الكتب يتهم رواة السيرة بأنهم مخترعون ولكنه لا يحجم عن الاعتماد على رواية من رواياتهم إذا استطاع أن يلمح فيها مطعناً على الإسلام، وهو حين يرى رواية أو حديثا فيه مصلحة الشيعة اتهمهم بوضعه وحين يرى رواية تعلي من شأن السنيين ألصقها بكتابهم، حتى أنك لتراه يضرب كل فريق بالآخر ليقنعك باضطراب كل هذه العناصر التي قامت عليها السيرة، وليخرج عليك هنا وهناك بآرائه المغرضة، وهو حين يتكلم عن السيدة عائشة لا يجد في مفردات اللغة الفرنسية إلا كلمة تشبه كلمة «مخظبة» في اللغة العربية، وللمستشرق لامنس تلك الفرية الضخمة التي دحضها كثير من الكتاب المسلمين وهي نظرية تشكيل الحكومة الإسلامية التي قامت يوم السقيفة واستمرّت طوال عهد الشيخين (أبي بكر وعمر) فهو يرى أن تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية على النظام المعروف في التاريخ الروماني. وهو يتهم الصحابة الثلاثة أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بأنهم تآمروا على احتكار الحكم بعد وفاة النبي وأن المؤامرة قد نجحت إلى حد بعيد، وقد بين الأستاذ عبد الحميد العبادي فساد هذه الفرية الكاذبة.

٤. جب: الأدب العربي

في كتابه عن الأدب العربي الصادرَ في سنة ١٩٦٢ يعتبر القرآن من كلام محمد صلى الله عليه وسلّم وهذه ظاهرة يشترك فيها بروكلمان ونيكلسون وغيرهم، فالمستشرقون يعارضون المفهوم الإسلامي القائم على النبوة والوحي. وهو يطلق على العصر الجاهلي اسما غريبا فيسميه (العصر البطولي) وقد رفض المستشرق مصطلح (العصر الجاهلي) وعصر ما قبل الإسلام وكذلك

فعل نيكلسون في كتابه التاريخ الأدبي للعرب، ويصر المستشرقون على وصف عصر الجاهلية بأنه عصر استنارة وأنه تمهيد للرسالة الإسلامية، ويثيرون الشبهات حول اللغة العربية فهي عندهم لغتان لا لغة واحدة: شمالية وجنوبية وقد تابعهم في ذلك الدكتور طه حسين، ويسمى عصر الإسلام الذي هو تحول خطير في التاريخ العربي بعبارة عصر التوسع ارتباطا بفكرته عن عصر بطولة الجاهلية.

كذلك فإن جب يأخذ بالشبهة ويرى أن النثر الفني العربي فارسي الأصل وينسى بلاغة عمر وعلي وعبد الله بن عباس وغيرهم. ويشيد جب بالثقافة اليونانية ويحاول أن يضيف إليها كل ما في الأدب العربي من تقدم، ويرد إلى الثقافات الفارسية واليونانية كل أمور النحو والبلاغة العربية، مع أن النحو والبلاغة وغيرهما من هذه الفنون قد تم تشكلها قبل الاتصال بالفكر اليوناني وقبل عصر الترجمة، أما الفلسفة فإن جب يعتبر الفلسفة العربية فلسفة يونانية المصدر، ويقول إن الذين رفعوا لواء الفكر والفن في العصر العباسي هم من أصل أعجمي أو نصف أعجمي ناسيا أن القرآ، الكريم هو الذي شكل عقليات المسلمين جميعا. من العرب والترك والفرس.

ويقف وقفة اهتمام إزاء أبي نواس وبشار.. والمستشرقون يبعثون تراثهما ويعيدوهما إلى الحياة حتى تفشو عباراتهما الإباحية والهجائية في العصر الحديث. وكذلك يولي الاهتمام بالحلاج في مجال التصوف أما المعتزلة فهو يوليهم اهتماما كبيرا ويشرح فكرهم شرحا مستفيضا ويعتبرهم من أتباع الفكر اليوناني ومن أكثر ما أعطى من الفكر الغربي للإسلام.

كذلك أولى جب اهتمامه بانتصار البويهيين وقال إنه نتيجة الخميرة الهلينية وكذلك الاهتمام بالموشحات والسجع والمقامات وقد ناقشنا هذه القضايا كلها بتوسع في كتابنا «خصائص الأدب العربي» فليرجع إليه من يشاء.

٥. نيكلسون: اللغة

من أبرز أخطاء المستشرقين عجزهم عن فهم النص والبيان العربي وقد أشارت الدكتورة بنت الشاطئ إلى عجز نيكلسون عن فهم الغفران لأبي العلاء وقالت أن فهمه للنص فيه أخطاء كثيرة بعضها هين يمكن التجاوز عنه أما الكثرة الباقية فتعرض صورا غريبة لفهم هذا المستشرق للنصوص العربية.

يقول: في الغفران ما نصه «وحدثت أنه كان سئل عن حقيقة هذا القلب قال هو من النبوة أي المرتفع من الأرض» وغاب عن نيكلسون أن الحديث هنا عن المتنبي ولقبه فعجز عن فهم هذا الاشتقاق نظرا لالتباس الأمر عليه أو وهم أن الحديث عن شخص آخر هو (القطربلي) وليس بينه وبين النبوة صلة ما وتقول: أن هناك أخطاء كانت في الأصل العربي صحيحة فغيرها نيكلسون بأخرى غير مفهومة ولا صحيحة وأخرى لم تنشأ من صعوبة العبارة في الغفران أو تحريفات النص وإنما نشأت عن عدم فهم الأسلوب العربي وعدم الانتماء إلى الأشخاص الذين يتحدث عنهم أبو العلاء. وبعد أن أوردت الدكتورة بنت الشاطئ عديدا من أخطائه (يستطيع القارئ أن يجدها في مقدمة كتابها الغفران).

قالت: «أقصد أن أنبه قومي إلى واجبهم في حمل هذه الأمانة –أي أمانة تحقيق التراث– بعد أن وكلوها إلى المستشرقين، وإن أدعو علماء العربية إلى نشر تراث لهم هم أولى به وأقدر على فهمه.

٦. ماسينيون: التصوف

اهتم لويس ماسينيون بأمرين. الدعوة إلى العامية والكتابة بالحروف اللاتينية وقد أذاع دعوته هذه في كل مكان ذهب إليه وقد ووجهت بالرفض والمعارضة.

أما اهتمامه الأكبر فكان بالترويج للتصوف الفلسفي وللآراء المناهضة للتوحيد الإسلامي كوحدة الوجود والحلول وقد ركز على الحلاج أكثر من

ثلاثين عاما حيث جمع كل ما يتعلق بأخباره وآرائـــه وأذاعهـــا مـــن جديـــد، وللاستشراق اهتمام واضح بجوانب معينة من التصوف، هو كل مـــا يتصـــل بمعارضة فكرة التوحيد وخاصة فكرة الاتحاد والحلول وهي الأفكار المســتمدة من الأصول المسيحية واليونانية ولذلك يولي الاستشراق اهتمامه بالحلاج وابن عربي والسهروردي وابن سبعين وغيرهم.

٧. شاخت: الشريعة الإسلامية

تابع شاخت أستاذه «جولدسيهر» في الحملة على الشريعة الإسلامية وكانت دعوته أن الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالأسرة والوراثة مستمدة من النظـــام القبلي الجاهلي.

وقد رد على آرائه المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة وكان مما قاله: «هـــل قرر الإسلام ما قرره البدو الرومان من ثبوت النسب. هل أقر الإســـلام نظـــام النبي الذي كان معمولا به عند العرب والرومان والإسلام قد اعتبر الولد حـــرا في التصرف في نفسه وماله بمجرد البلوغ الطبيعي والرومان كانوا يعتبـــرون ولاية أبيه قائمة ولو بلغ الستين حتى يمنحه الأب حق التصرف، هـــل نظـــام الميراث كما قرره الإسلام سبق به أي شرع من الشرائع. وفي العقوبـــة: هـــل كان الفرد يقتل بالفرد وأن النفس بالنفس ولا عبرة بمقدار ما كان عليه المقتول من جاه أو منزلة عند الناس فإن النفوس متساوية بحكم القرآن وأقوال محمـــد وليست متساوية بحكم القبائل العربية، فزعيم القبيلة يقتل به ألوف وهل كان في حكم القبيلة أن السارق تقطع يده إلخ إلخ.

وكراهية المستشرقين للشريعة الإسلامية واضحة: كوفين، وينان، كلامون، جانو، جولدسيهر، مرجليوث، لامنس، وقد حاولوا إيهام المسلمين بأنها ســـبب

تأخرهم وعائق في سبيل تقدمهم ونهوضهم وإثارة الشبهات حـول نصوصـها المحكمة.

نهاية الاستشراق أو بداية مرحلة جديدة

واليوم نجد تصريحات جديدة تقول بنهاية الاستشراق فقـد أعلـن مـؤتمر الاستشراق التاسع والعشرين الذي عقد في العام الماضي أنه تقـرر أن يطلـق على مؤتمر الاستشراق القادم «مؤتمر العلوم الإنسانية» وبذلك ختمـت جولـة ضخمة بدأت بعد احتلال الجزائر ١٨٣٠ وامتدت على مدى مائة وخمسين عاما وقد وصفت جريدة الموند الفرنسية هذا التحول بأنه موت الاستشـراق، ومـن المصادفات العجيبة أنه خلال العام الماضي نوقشت في جامعة الأزهر رسـالة ضخمة عن حركة الاستشراق للدكتور أحمد إسماعيل أزوفـتش وقـد عقـدت مؤتمرات استشراقية كثيرة فـي الأعـوام الأخيـرة تناولـت الأدب العربـي والمصطلحات العامية كما أعلنت إسرائيل تكريمها للمستشرق «برنارد لويس» الذي هاجم الأمة العربية ووصفها بالعنصرية، وحيث يوجد اليوم جناح ضـخم من الاستشراق الصهيوني قوامه ردتسون وبرنارد لويس ويركز كل اهتمامـه بقضايا فلسطين وإبراهيم وإسماعيل والقدس واليهود وهكذا ومـن أثـار هـذا الاستشراق تلك الدعوى التي أثارها الدكتور طه حول إبراهيم وإسماعيل بالرغم من إشارة التوراة والقرآن لهما والنصوص الخاصة بعروبة إسماعيل ورابطته بإبراهيم وما يتصل بذلك من دور العرب والمسلمين من ميراث أبي الأنبياء.

كل هذا يجعلنا في حذر دائم مما يكتبه المستشرقون وما يكتب عنهم ونحن إزاء تحول الاستشراق إلى ميدان العلوم الإنسانية نحس بأن الخطر أصبح أشد قوة وعمقا وأن الاستشراق يغير جلده ليدخل في مرحلة جديدة أكثر خطرا.

الملحق٥: قراءة في الاستشراق الهولندي

الاستشراق ليس أنواعا ولا أعدادا ولا ألوانا، بل ثمة استشراق واحد. الاستشراق ليس مصطلحا جغرافيا ولا جغرافياتيا، الاستشراق ليس تخصصا أكاديميا أو جامعيا بالمعنى المعتاد. بل إن الاستشراق في الأصل حرفة فكرية من نوع خاص، حرفة غير رسمية وغير شريفة، المستشرق في هذا السياق يحترف دراسة «غير الغرب»، الذي يصطلح عليه عادة بـ «الشرق»، الذي يخيل إلى العامة بأنه بقعة جغرافية، «المشرق» هو بالأحرى تصور أو صورة المستشرقين حول حضارة غير غربية، حضارة نقيضة وبديلة للحضارة الغربية.

ولما كانت الحضارة الإسلامية الواقعة شرقا بالنسبة إلى «الغرب» تشكل الأخطار على الحضارة الغربية، باعتبار أن الدول والشعوب الحاملة للحضارة الإسلامية بالمعنى الواسع هي الأقرب جغرافيا إلى «الغرب» وبجكم الحزازات العميقة والقديمة القائمة بين الحضارتين منذ القرون الوسطى من جهة والنظرة الغربية المتعالية من جهة أخرى، أولى دارسو «الشرق» عناية خاصة بالعالم الإسلامي.

المستشرق إذن هو أصلا ذلك الباحث الذي احترف الاهتمام بدراسة الشرق من منظور غربي، وفقا لمعايير ثقافة عبرانية أو مسيحية مادية. وهو ما توصل إليه كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد بعد دراسة أعمال مستشرقين فرنسيين وبريطانيين من القرن الماضي على وجه الخصوص. أما اليوم ومن أجل دقرطة[٣٥] استعمال تسمية «المستشرق»، إنصافا إلى هؤلاء المستشرقين المنصفين مبدئيا إلى «الشرق» ربما كان من المناسب التمييز بين المستشرق

---

[35] هذه الصيغة العربية السليمة بدل (دمقرطة) الشائعة الاستعمال (المشكاة).

المحترف والمستشرق الهاوي، على غرار ما يفعله إدوارد سعيد بالنسبة إلى المثقف. يميز سعيد في «تمثيلات المثقف» بين المثقف المحترف، ذلك المثقف «المحترف»، ذلك المثقف المؤسساتي الذي يخدم مصالح السلطة القائمة والثقافة الرسمية، والمثقف «الهاوي»، الذي هو مثقف مستقل نسبيا يرمي إلى تحقيق النفع العام ويرفض إخضاع معرفته لمتطلبات وشروط الجهات الرسمية، على هذا النسق يمكن اعتبار المستشرق الذي أبدى حسن نيته من خلال كلامه وكتاباته مستشرقا «هاويا» عكس المستشرق «المحترف» المسيء إلى الاستشراق كدراسة علمية أو كمقاربة موضوعية.

كنقطة أخيرة في هذا الإطار النظري أرى من الضروري التنبيه إلى أن هناك أيضا استشراقا احترافيا بدون مستشرقين محترفين، إنه الاستشراق في الأدب والفن. الروائيون والشعراء والمسرحيون ليسوا عاوين في شيء ولا هم أبرياء مسبقا، وما يكتبونه ليس مجرد أساطير. بعض كتابات جين أوسطين وجوزيف كونراد الروائيين البريطانيين «آيات شيطانية» لسلمان رشدي وأوبرا «عائدة / Aïda» لدجوزيني فيردي هي نماذج واضحة من الإبداع الاستشراقي.

لا يخفى على أحد أنّ اهتمام أوربا باللغة العربية (ولغات شرقية أخرى) لم يتم بدافع الفضول أو رغبة في كسب العلم بالدرجة الأولى، لقد عنيت المؤسسات الترسمية الأوربية، وعلى {اسها الكنيسة منذ القرون الوسطى بدراسة اللغة العربية تبعا لاستراتيجية هدفها إغراء المسلمين لاعتناق المسيحية عقيدة. هذا على المستوى الشعبي المباشر، لأن الأوربيين المثقفين منهم خاصة، وبتشجيع من الكنيسة والدولة، درسوا لغة الضاد أيضا حتى يكشفوا في اعتقادهم عن النقائص والنقائض التي تحتوي عليها نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وبذلك ينتصرون لدينهم المسيحي عن طريق الجدل العلمي. الهولنديون هم أيضا ولجوا عالم الاستشراق من هذا الباب في نهاية القرن السادس عشر

ومطلع القرن السابع عشر، خصوصا مع تأسيس أول جامعة هولندية بمدينة ليدن سنة ١٥٧٤. قبل ذلك، شارك الهولنديون مع إخوانهم الأوربيين في الحملات الصليبية ضد الإسلام والمسلمين.

من أعلام الاستشراق الهولندي في القرن السابع عشر أذكر على الخصوص إربينيوس (Erpenius) وخوليوس (Golius) التحق إربينيوس بجامعة ليدن (Leiden) سنة ١٦٠٢ لدراسة اللاهوت، واهتمّ باللغات الشرقية بتوجيه من شكالخير (Scaliger) أول أستاذ للغة العربية بهذه الجامعة. اهتمام إربينيوس بالعربية شمل علوم الطب والرياضيات والنحو والتاريخ، ولكن اهتمامه انصرف إلى تعلّم لأنها تيسر فهم النصوص اللاهوتية العبرية وترجمتها من العبرية إلى اللاتينية من جهة، ولأن التمكن من اللغة العربية بالغ الأهمية وأمر ضروري في عملية التبشير «ليرد إلى المسيحية جملة كبيرة من الشعوب العظيمة» على حد قول إربينيوس (راجع الدراسات العربية في هولندا ص: ١٥) وقد ساهم هذا الأخير في هذا الحقل بتأليف كتاب النحو والصرف، وبترجمة «العهد الجديد» إلى العربية (١٦١٦) و«أسفار موسى الخمسة» (١٦٢٢) التي أهديت نسخ منها إلى مشارقة بارزين. وقبل وفاته سنة (١٦٢٤) عين إربينيوس مترجما رسميا للحكومة الهولندية بعدما اقتنعت هذه الأخيرة بالدور الكبير الذي تلعبه اللغة العربية على صعيد السياسة الخارجية من أجل الاستحواذ على «الشرق».

خلف إربينيوس على {اس المستشرقين الهولنديين يعقوب خوليوس (١٥٩٦-١٦٦٧) الذي عمل أستاذا للغة العربية ومادة الرياضيات، وأنشأ فيما بعد أول مرصد فلكي هولندي في ليدن عام ١٦٣٣. كما شغل خوليوس منصب أمير سر القنصل الهولندي بحلب في سوريا ومستشارا للحكومة الهولندية في قضايا إفريقيا الشمالية وشؤون أخرى متعلقة بالمشرق. وقد لعب خوليوس أيضا

دورا بارزا في اقتناء مخطوطات كثيرة أغنى بها مكتبة جامعة ليدن، حيث حصل مثلا خلال إقامته بمراكش في بعثة علمية استغرقت سنتين على مخطوطات عديدة نذكر منها «وفيات الأعيان» لابن خلكان و«المقدمة» لابن خلدون.

ولكن أخطر ما اتصف به المستشرق خوليوس على غرار إربينيوس هو كراهيته للإسلام، الذي أحدث في رأيه جراحا عميقة إذا تركناها ستعدي جزءا كبيرا من البشرية (راجع الدراسات العربية في هولندا، ص: ١٧). ترجم خوليوس «العهد الجديد» ومواعظ المسيحية وطقوسها إلى العبرية ليسلح بها مسيحي الشرق ضد ما أسماه بـ «الطوفان الإسلامي» كما ترجم سورة واحدة من القرآن الكريم الذي خطط خوليوس دون نجاح لترجمته كاملا إلى اللغة الهولندية ضمن مخططه الهادف إلى دحض المتن القرآني بالكشف حسب زعمه عن زلاته وخرافاته التي لا يقبلها العقل السليم. من مؤلفات خوليوس أيضا نذكر قاموسا (عربي لاتيني) صدر عام ١٦٥٣.

لم تتغير نظرة المستشرقين الهولنديين إلى الإسلام في القرن الثامن عشر ولم يتبدل موقفهم منه، ومن الأسماء اللامعة خلال هذا القرن نجد أدريان رايلاند (١٦٧٦-١٧١٨) الذي برع في فقه اللغة والفلسفة وعلم الجغرافيا والآثار والخرائط.

صدر لرايلاند سنة ١٧٠٥ كتاب «في الديانة المحمدية» وهو باختصار مؤلف يكنّ الحقد والكراهية للإسلام، غير أن هذا لا يعني بأن رايلاند كان أكثر نزاهة وموضوعية من سابقيه بحيث إنه نوه بالبعثات التبشيرية في الشرق وبحضور التجار ورجال الأعمال الهولنديين لاستغلال المنطقة وتنصر ذويها (نفس المرجع السابق، ص: ٢٨-٢٩). أما سخولتنس (١٦٨٦-١٧٥٠) الذي تقلد كرسي اللغات الشرقية بليدن سنة ١٧٣٢ فإن اهتمامه باللغة العربية كان

نابعا من اقتناع بأن هذه اللغة تخدم اللاهوت أكثر من غيرها، ومن ثم اقتصرت دراساته وبحوثه على فوائد اللغة العربية في تفسير الكتاب المقدس.

في سنة ١٨١٣ أي في القرن التاسع عشر، تحررت جمهورية هولندا من قبضة نابليون لتصبح مملكة دستورية، وقد شهد هذا القرن في ما يتعلق بموضوعنا اهتماما متزايدا بالأدب العربي بعدما ترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية أعمال أدبية نذكر منها على وجه الخصوص «ألف ليلة وليلة» ومن الأسماء البارزة التي عنيت بدراسة الشرق نجد هاماكر Hamaker (١٧٨٩-١٨٣٥) وويبيرس Weijers (١٨٠٥-١٨٤٤) وياونبول Juynboll (١٨٠٢-١٨٦١) ودوزي Dozy (١٨٢٠-١٨٨٣) ودخويه De Goeje (١٨٣٦-١٩٠٩).

اهتم دوزي بالأندلس والحضارة الإسلامية بينما انشغل دخويه بفقه اللغة وياونبول وويبيرس بالأدب العربي وهاماكر بالأدبين العربي والأندلسي.

بعد هؤلاء قاد موكب المستشرقين الهولنديين سنوك هورخرونيه S.Hurgronje (١٨٥٧-١٩٣٦) الذي برز في دراسة شؤون العالم العربي والشريعة الإسلامية. ويعد من أكبر المستشرقين الهولنديين على الإطلاق. عاب هورخرونيه على سابقيه كونهم لم يذهبوا بعيدا في وضع معرفتهم حول الشرق والعالم الإسلامي في خدمة هولندا وعلاقتها مع مسلمي المستعمرات الهولندية، بعبارة أخرى هورخرونيه هو أول من حاول الربط بين الاستشراق والامبريالية قولا وعملا، بطريقة منتظمة وفعالة. وليس هذا الموقف إلا انعكاسا وتأكيدا لسياسة هولندا تجاه الشرق، حيث درست موظفيها المبعوثين إلى أندونيسيا بالخصوص على يد مستشرقين ووفقا لمناهج امبريالية تقوم على امتصاص حقوق الشعوب المسلمة المستعمرة باسم القرآن والحديث النبوي والدليل على

ذلك أن التكثف الذي عرفته سياسة هولندا الاستعمارية في أواخر القرن الماضي زادته كثافة في سياسة ما أسماه المستشرقون «القانون الإسلامي».

وهذا لم يحدث مصادفة، وإنما كان من الوسائل الضرورية التي تخول لهولندا استعمار البلاد المسلمة في ظل القانون الإمبريالي الوضعي الذي وضعه مستشرقوها وأسندوه إلى القرآن والحديث.

في هذا السياق بالذات، لعب هورخرونيه دورا كبيرا لإقناع مسلمي المستعمرات بأن الإسلام دين سلم ويدعو إلى التعايش وليس الثورة والتمرد.

بناء على يكفي أن يقبل المستعمَرُ المستعمِرَ ولاءه ليسود السلام، وذلك من تعاليم الإسلام في تأويلات هورخرونيه. هكذا كسبت ليدن سمعة كبيرة من أواخر القرن التاسع عشر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى بكونها عاصمة الاستشراق العميل، الأورومركزي، المترفع والعنصري. ولا تزال آثار هورخرونيه تغزو الجامعة إلى اليوم متمثلة في الاحترام اللامشروط الذي يوليه المستشرقون الهولنديون لهذه الشخصية من جهة، وفي الانتقاد اللذع الذي يقع على منتقدي هورخرونيه والعقد الوطيد الذي جمع بين الحكومات الهولندية والاستشراق الليدني لتحقيق أغراض غير نزيهة من جهة أخرى.

ولعل أشهر ضحايا أتباع هورخرونيه الأصوليين من المستشرقين الهولنديين اليوم البروفيسور ش. فان كوننسفيلد الذي أثبت بالحجج والوثائق نفاق هورخرونيه فيما يتعلق باعتناقه للإسلام وتورطه في سياسات هولندا الإمبريالية.

واجهة الاستشراق الهولندي في الوقت الحاضر ترتدي زيا يدعو الناظر والعابر إلى الاعتقاد أن عهد التعصب للمسيحية وكراهية الإسلام والتعالي على المسلمين قد انقضى. يتجلى ذلك في المعاهد والشعب المنتشرة في هولندا والمهتمة بدراسة وتدريس اللغة العربية والإسلام. في المجالات التي تصدرها

في هذا الإطار مجلة «شرقيات» منبر الجمعية الهولندية لدراسة الشرق الأوسط والإسلام» ومجلة «القانون الإسلامي» التي تصدرها جمعية دراسة اللغة العربية والقانون في الشرق الأوسط ومجلة صدرت أخيرا غن دار بريل (E.J.Brill) الشهيرة تحلم اسم «القانون الإسلامي والمجتمع» بالإضافة إلى المجلة العريقة والناجحة «مجلة الأدب العربي» (J.A.L) الصادرة عن دار بريل أيضا. ومن العلامات الأخرى الدالة على تمتع الدراسات العربية والإسلامية بمكانة بارزة في هولندا ثمة «Studia Orientalia» و«مخطوطات الشرق الأوسط» الصادرتان بليدن، ثم دائرة المعارف المعروفة « Encyclopedia of Islam» التي تنشرها دار بريل، وهناك المعهد الهولندي بالقاهرة و«جمعية الباحثين في الشرق الأوسط» (MERA)، إحدى الجمعيات العديدة التي تعنى بجوانب مختلفة من حياة العرب والمسلمين وثقافتهم. ثم «كرسي الإسلام» الذي أحدثته جامعة أمستردام ويتقلده حاليا الأستاذ الجزائري المقيم بباريس محمد أركون.

حقا لقد عرف الاستشراق الهولندي في العقود الأخيرة تحولا إيجابيا بحكم التطورات الجيوسياسية التي عرفتها العلاقات الدولية من جهة وبفضل جرأة بعض المستشرقين على الخروج عن «القطيع» والإيديوليجيا الرسمية من جهة أخرى. ولكن تبقى لدينا بعض الملاحظات التي تفرض نفسها على كل من يعالج الاستشراق الهولندي (الحالي) نظرا لأن جوهره لا يتفق دائما مع مظهره.

١. غالبية المستشرقين الهولنديين إما يقللون من تورط الاستشراق الهولندي مع القوى الرجعية والإمبريالية بسيرهم في خطى أسلافهم وتبني مناهجهم، وإما يتجنبون إبداء الرأي في الموضوع ملتزمين حياد المتورط.

٢. معظم الوافدين على المعاهد والجامعات الهولندية من المدعوين للتحدث حول الإسلام وثقافة العالم العربي وأدبه هم الغرب أو ممن ينشرون فكرا لا ينصف الشرق.

٣. وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة بهولندا تقدم على العموم نظرة سلبية حول الإسلام المسلمين.

٤. إحداث «كرسي الإسلام» الذي يتقلده محمد أركون خضع لاعتبارات سياسية بحتة، والدليل على ذلك أن هذا الكرسي قد يختفي عما قريب نتيجة لاعتبارات سياسية جديدة.

٥. دائرة المعارف الإسلامية (EI) الصادرة بليدن لا زالت تكرر بعض المفاهيم الخاطئة حول الإسلام والعالم الإسلامي.

٦. المرجع الرئيس حول الدراسات الاستشراقية الهولندية يحمل عنوان «الدراسات العربية في هولندا» باللغتين العربية والإنجليزية. يتضمن هذا الكتاب الذي ألفه المستشرقان بروخمان Brugman وسخرودر أفكارا واستنتاجات خطيرة تزوّر الحقيقة حول تاريخ الاستشراق الهولندي وتبرز مواقف المستشرقين من الإسلام والمسلمين. والأخطر من ذلك أن هذا الكتاب المضلل الذي موّلته الحكومة الهولندية وأشرف عليه المعهد الهولندي بالقاهرة وزعته السفارات والقنصليات الهولندية في الخارج بالمجان للترويج لتلك الأفكار والاستنتاجات الخاطئة. لا بأس أن ننكّر أن بروخمان هو الذي كتب يقول إن كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد يدعو قارئه إلى الاشمئزاز والازدراء، وأنه أيضا صاحب النقد الشخصي اللاذع الذي تلقّاه الدكتور العراقي المقيم بليدن قاسم السامرائي جراء انتقاده الأسلوب غير الموضوعي لبعض المستشرقين الهولنديين في كتابه «الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية».

لائحة المصادر والمراجع بالعربية

- ي. بروخمان وف.سخرودر: الدراسات العربية في هولندا، ليدن، دار بريل، ١٩٧٥-١٩٧٩.
- سالم حميش: الاستشراق في أفق انسداده، الرباط، المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٩١.
- قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الرياض، دار الرفاعي، ١٩٨٣.
  - قاسم السامرائي: الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية المحفوظة في مركز البحوث، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، إدارة الثقافة والنشر بالجامعة، ١٩٨٨.
  - مجلة عالم الكتب، (عدد خاص عن الاستشراق)، عدد ٦، مجلد ١٥، ١٩٨٤.

لائحة المصادر والمراجع باللغات الأجنبية

- **Edward W Said: Orientalism, London, Pengrin, 1995 (1st ed 1978).**
  - **Representations of the Intellectual, London, Vintage, 1994.**
  - **Culture and Imperialism, London, Vintage, 1994 (1 ed 1993).**
- **Wilhelmina M.C Juynboll: Zeventiende-Eeuwsche Beoefe-naars van het Arabischin Nederland. Utrecht, Kemink en zoom, 1931.**
- **Jan Nait: De Studie van de Oosterse Talen in Nederland in de 18e en de 19e eeuw. Purmerend,J.Muusses, 1929.**

- Arie Schippers et al (eds): Driehonderd Gaar Oosterse Talen in Amsterdam. Amsterdam, Universiteit van Amsterdam, 1986.
- P.Sjoerd van Koningsveld: Snouck Hurgronje en dr Islam. Leiden, Faculteit der Godgeleerdheid, 1987.
- Willem Otterspeer (ed): Leiden Oriental Connections 1850-1940. Leiden, Brill 1989.
- Ruud Peters (ed): Wij en het Midden-Oosten. Nijmegen, TCMO, 1978.
- // // // //: Le Maroc et la Hollande. Etude sur l'histoire, la migration, la linguistique et la sémiologie de la culture. Rabat, Publications Facultés Lettres et Sciences Humaines, 1988.

الفهرس


I.S.B.N9789772769414
6222008 913111


المكتب العربي للمعارف